٣٤ قصة
من واقع الحياة

بكر محمد إبراهيم

مكتبة القدسى
للنشر والتوزيع
٧٤ ش البستان ـ عابدين ـ القاهرة
ت : ٣٩٢٥٦٨٨

مَكْتَبة القُدسى

للنشر والتوزيع

٧٤ ش البستان - عابدين - القاهرة
ت : ٣٩٢٥٦٨٨

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م

تطلب مطبوعاتنا

من

مركز توزيع الكتاب الإسلامى

٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

القاهرة

المقدمة

الحمد لله الذى يغير ولا يتغير ولا يتحول لا تحويه الأقطار ولا يؤثر عليه مرور الليل والنهار يعلم عدد قطر الأقطار ، وعدد أوراق الأشجار وعد حبات الرمال .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب يحوى عشرات من القصص من واقع الحياة قصصاً وقعت فعلا أو حدثت فى حياتنا سجلتها فى هذا الكتاب كما حدثت ووقعت وهذه القصص مليئة بالصدق والواقعية ، وتعرض لكثير جدا من الجوانب الخفية فى حياة أبطالها وتسجل أفراحهم وأحزانهم ومشاعرهم والدروس المستفادة من قصصهم .

وهى قصص شيقة شديدة الجاذبية يستفاد منها الكثير من العبر والمعانى والمعارف والتجارب وكأنها تضيف إلى عمر الإنسان أعمارا لأنها تجعله يعيش عشرات القصص بالاضافة إلى قصته مسافراً إلى كافة الأقطار وهو جالس فى حجرته يتصفح هذا الكتاب ويستمتع بهذه القصص .

وقد وضعت هذا الكتاب من جريدة الوفد والأنباء ومجلات نصف الدنيا وحواء وحريتى وغيرها من الصحف والمجلات .

نفع الله بها وأثاب من قرأها ومن أخرجها .

والحمد لله أولا وآخراً ...

المؤلف

بكر محمد إبراهيم



١- ابنة الجنرال .. امرأة من الحب والرغبة والعذاب أيضا!(١)

الحياة مصادفات(٢). مصادفة تصعد بنا إلى قمة الجبل ومصادفة تسقط بنا فى قاع البحر، مصادفة تعطينا أسماءنا ولون بشرتنا وفصيلة دمنا ويوم مولدنا ورقم حظنا وخفقان قلوبنا ورعشة الشوق فى أرواحنا وساعة رحيلنا! ومصادفة تجعلنا ملوكا نأمر ونشخط ونتدلل ونمتطى صهوة السلطة والنفوذ والفلوس أو صعاليك نطيع وننصاع وننكسر ونسكن أرصفة الشوارع مقهورين مفلسين!

وقيمة المصادفة فى أننا نجهل قوانينها، لا نعرف متى تهل علينا أو من أى الجهات الأربع تهب السماء فقط هى التى ترسم ملامحها وتحدد أغراضها. فتظل عيوننا مشدودة إلى المجهول، وقد نفلح ونحولها بالعرق إلى جسر نعبر به فوق موج الأيام المتلاطم إلى شاطئ المتعة أو قد نفشل فتحولنا هى إلى ضحايا تتقاذفنا تياراتها بعنف فى أرض العذاب ، وقد تكون المصادفة مثل القدر المكتوب لا حيلة لنا فيها نستسلم لها ونذعن لما تحمله لنا من فرح أو حزن دون إرادة.

ومصادفة هى التى جعلت لـ "مليكة أو فقير" أبوين . الجنرال محمد أوفقير، أب بالميلاد والنسب والدم. والملك الحسن الثانى، أب بالتبنى والتربية والرعاية، وأن يتآمر الجنرال على الملك فيرد عليه الملك بقتله وتشريد أسرته وسجنها فى الصحراء مع الأشباح والوطاويط والعقارب والصراصير والجرذان والحرمان عشرين عاما.

---

(١) جريدة صوت الأمة ٢٠٠١/٢/٢٨ - أ. نبيل عمر .

(٢) الحياة تسير بقدر .

لقد عاشت مليكة أوفقير حياة فريدة، مزيجا من الجنة والنار. الأحلام والكوابيس، الحب والكراهية، القصر والسجن انشطرت خلالها بين القاتل والقتيل، بين الجلاد والضحية بين الجنرال والملك!

لكنها لم تنس أبدا أنها امرأة متعطشة للحب مفعمة بالرغبة متمردة على التقاليد، ساعية للهروب!

ليست هذه قصة امرأة عادية أو غير عادية، إنما هى الأيام التى نعيشها. الهزائم التى نتجرعها. الصفوة التى تحكمنا، وإذا كنا نرويها من المغرب فهى مجرد مصادفة لا أكثر . فالقصة متكررة بأسماء أخرى فى أماكن أخرى، لا يهم اسم البلد أو الحاكم أو الموقع أو التفاصيل ، مادام أصحابها من الناطقين باللغة العربية، والفارق الوحيد هو أن هناك من صرخ وروى وقص .

فأرجوكم انسوا الأسماء فهى ليست ذات بال فى مغزى الرواية . ويمكن أن تستبدلوا بها أسماء أخرى تعيش بيننا وتتحرك نجمات سينما أو رجال أعمال أو رجال سياسة أو حكاما. ومليكة فتاة غير عادية بالفعل، فهى ابنة جنرال شهير ، وبالرغم من هذا فأمها هى مفتاح حياتها، الأم الجميلة المليئة بالحيوية والحب والرغبة التى هربت من الجنرال إلى أحضان ضابط صغير فيطارده الجنرال حتى يتخلص منه، ومليكة فى كتابها "السجينة" تروى هذه الوقائع وهى منحازة إلى سلوك أمها وما صنعته ، فالتشابه فى القدر والمصير بين الاثنتين لا تخطئه الأعين!

الأم فاطمة الشنا وردة تفتحت وهى في الخامسة عشرة ، عينان واسعتان سوداوان ، بشرة نقية سمراء ، جسد صغير بض، نهدان متمردان ، وسحر فى الحديث والخطوات وفتنة فى اللحظ والقوام، عاشت بين مدرسة راهبات فرنسية بعد موت أمها، ثم حبيسة فى منزل أبيها الذى تزوج عروسا جديدة فلم تعد تطيق الإقامة فى المنزل!

الأب أوفقير كان ضابطا فى الخامسة والثلاثين عندما وقع صريعا فى هوى الوردة الصغيرة من أول نظرة عندما زار والدها ذات مرة فتزوجها على الفور، تسلم الضابط الفتاة الصغيرة وهى قطة مغمضة فعلمها كل شيء، المشى والنظرة والدلع والرقص والموضة وقيادة السيارات الفارهة، فتربت على يديه عاطفيا وإنسانيا . من آداب السلوك إلى لوعة الحب!

لكن سرعان ما انشغل الضابط ببناء مستقبله المهنى، وبات يتغيب عن البيت أوقاتا طويلة ولا يعود إلا فى ساعات متأخرة من الليل، كانت الزوجة الصغيرة انجبت الإبنة "مليكة"، وكلما مرت الأيام وكبر وعى الطفلة تعلقت بأمها، وأصبحت تتابعها باهتمام دون كلل أو ملل، وهى تتزين وتتبرج وتسرح شعرها وترتدى ملابسها ذات الفتحات الواسعة التى تظهر محاسن عنقها وصدرها، أو وهى ترقص على موسيقى روك أند رول للمغنى الأمريكى الأشهر إلفيس بريسلى، أو تجوب بين المدعوين تتحدث إليهم أو تضحك معهم أو تراقص بعضهم أو تغنى فى الحفلات الساهرة التى اعتادت العائلة على إقامتها فى قصرها من أن لآخر حتى مطلع الفجر!

كان أوفقير وقتها قائدا للحرس الملكى وأسرته على علاقة صداقة متينة بالعائلة الملكية، وكانت فاطمة الشنا من القلة النادرة التى تدخل القصر الملكى وتتجول فيه بحرية، وكان الملك محمد الخامس يترك قصره أحيانا ويزور جيرانه فى الفيلا التى يعيشون فيها دون سابق إنذار، وذات مرة دخل إلى المطبخ لأنه اشتم رائحة شياط فقابلته مليكة وكانت فى الخامسة من عمرها وطلب منها أن تذهب وتخبر أمها بقدومه. وبالفعل كانت الخادمة قد نسيت إبريق الشائ فوق النار المشتعلة وأنقذ الملك العائلة من حريق!

ودون تصريح تلمح مليكة إلى ولع الملك بأمها فاطمة الشنا، وأن هذه العاطفة لمست شغاف قلبه حين رآها أول مرة وهى فى الثامنة، وعادت متأججة عندما رآها مرة ثانية وهى زوجة الجنرال محمد أوفقير، لكن الملك كان يتمتع

بأخلاق رفيعة لا تسمح له أن يقيم علاقة مع امرأة متزوجة من قائد حرسه وأهم رجاله على الإطلاق!

ويستعيض الملك عن فاطمة بالإبنة مليكة ويتبناها لتعيش مع ابنته الأميرة أمينة فى القصر!

وكما حرمت فاطمة من أمها وهى فى الرابعة بالموت تحرم مليكة من أمها وهى فى الخامسة بالتبنى الذى لا يمكن رفضه !

وتعيش مليكة فى القصر وتعتاد على حياتها فيه، بالرغم من إحساسها بفقد أسرتها التى لم تعد تراها سوى ساعة أو أقل كل أسبوع، ثم فقدت هذه الساعة الأسبوعية أيضا، بعدما هجرت أمها أباها وهربت مع ضابط آخر وعاشت معه وبات من المستحيل رؤيتها!

وكان الملك محمد الخامس قد مات وانتقل أمر التبنى والرعاية إلى ابنة الملك الحسن الثانى.

لا تخجل مليكة وهى تحكى قصة تعلق أمها بالضابط الشاب . فالأم لديها مبرر مقبول لوقوعها فى حبه دون أدنى مقاومة ، لقد انشغل عنها الجنرال بعمله ومغامراته العاطفية الماجنة وخياناته المتهتكة، فكانت صيدا سهلا معدا للسقوط فى حبائل الفتى الضابط فتغادر بيتها مطلقة تاركة وراءها أربعة أطفال وتعيش معه وتنعم بأيامها بين أحضانه.

ويلمح المرء إعجاب مليكة بسلوك الأم، لأنها هجرت حياة القصور والرياش والثروة التى لها برودة الرخام إلى دفء السكن الصغير والحب والعمل والاعتماد على النفس، تركت الراحة والخدم والحشم والأبهة والسطوة وفتحت متجرا للملابس النسائية الجاهزة، لكن الجنرال لا يستسلم لخسارة امرأته بسهولة ، فيطاردها كظلها ويكلف ضباطه بمراقبتها ليل نهار، ويسافر هو إلى حيث تعيش، لا ليزورها أو يتحدث إليها ، وإنما ليقضى الليالى الباردة داخل سيارته

فى الشارع مقابل منزلها، يتأملها على البعد، ويتألم في صمت ، ويتحسر فى أسى، وعندما يتمرد على الإهانة التى لحقت به ويدفعه الملك إلى الزواج بأخرى لعلها تنتزع من قلبه العشق الساكن فيه والشوق الذى يعربد داخله، إذا به عاجز تماما عن النسيان، غير قادر على الفرار من صورة فاطمة التى تطارده، وكلما اقترب من امرأته الجديدة يشتعل حنينه إلى الوردة التى هجرته، وفى لحظة فاصلة يقرر استردادها!

كانت مكانته تمنعه من الهبوط وكبرياؤه يحميه من الصغائر، فلم يقترب من الضابط الصغير المسكين الذى تحدى ونازل أقوى رجل في البلاد علي زوجته بسيف الحب لكن سلطان الحب لا يعترف بكل هذا، وجرح الكبرياء لا يندمل إذا كان بسبب امرأة هجرت جنرالا له قبضة التنين وسلطة قيصر، ويفكر الجنرال ويدبر وينفذ خطته فيرسل الضابط فى مهمات عسكرية خطيرة متتالية إلى أقصى البلاد بهدف إنهاكه، وجرجرة فاطمة إلى حالة الوحدة فى الليالى الباردة والحرمان من الفراش الدافئ وبالفعل لا تجد بدا من العودة إلى الجنرال!

وفى الوقت نفسه عادت مليكة إلى أحضان أسرتها، فهى لم تعد تتحمل سيرة أمها وهى تتحول إلى طبق الحلو اليومى بين الجوارى والمربيات ونساء الملك الحسن الثانى ، فلم تكن بالنسبة لهن أكثر من ضائعة وساقطة!

عادت مليكة إلي بيت أسرتها، وهى فى السابعة عشرة من عمرها، بعد ١٢ عاما قضتها فى القصر الملكى، ولم تستمر فيه سوى ثلاث سنوات فقط حتى خرجت منه إلى السجن!

ثلاث سنوات من الحرية والعبث والسهر فى علب الليل والرقص فى النوادى الليلية ومصاحبة نجوم السينما فى لندن وباريس ولوس انجلوس، اغترفت مليكة من الحياة كما لو أنها تنتقم لحبستها فى القصر مع حريم الملك

أو كان إحساسها الداخلى يدفعها إلى ذلك دفعا لتعويض ٢٠ سنة على وشك أن تضيع منها فى السجن على غير انتظار!

وعرفت أيضا خلال تلك السنوات الثلاث أن أباها هو عدو الشعب المغربى رقم واحد، وأن زميلاتها فى المدرسة يسمينه "القاتل" أو "المتوحش". فهو مشهور بقسوته فى قمع معارضى الملك، ومدان بقتل المناضل المهدى بن بركة ، وكان المهدى أحد الزعماء الوطنيين، ومؤسس الاتحاد الوطنى للقوات الشعبية الذى قاوم الاحتلال الفرنسى حتى نالت المغرب استقلالها فى الثانى من مارس عام ١٩٥٦، وكان أيضا مدرس الرياضيات الخاص للملك الحسن الثانى إبان ولايته للعهد، ثم صار معارضا للحكم وتعقبته السلطات المغربية ويقال إنها اختطفته فى ٢٩ اكتوبر ١٩٦٥ من أمام مقهى فى ضواحى باريس ومن لحظتها اختفى نهائيا عن الأنظار ولم يعثر له على أثر، فاتهمت الحكومة الفرنسية أوفقير الذى كان وزيرا للداخلية وقتها بتدبير الجريمة بل وقتله بيده واحالته إلى المحكمة التى حكمت عليه غيابيا بالسجن مدى الحياة.

وتعرفت مليكة على شلة من الأصدقاء، بعضهم من أسر شيوعية معروفة متحررون إلى درجة الانفلات وبعضهم من أبناء وزراء ورؤساء وزارة سابقين أو رجال أعمال ومارست مثل أغلب الشرقيين لعبة "ازدواج الشخصية"، أمام أبيها فتاة عاقلة مجتهدة تنسحب مساء كل ليلة مبكرا، لتنام من أجل الاستيقاظ مبكرا وتذهب إلى المدرسة، وفى الخفاء فتاة معجونة بمياه العفاريت الزرق، لا تنام كما قالت وإنما تستبدل ملابسها وترتدى جيبا قصيرا فوق الركبة أو شورتا ساخنا وتضع مكياجا كاملا وتقفز من الشباك إلى الحديقة ومنها إلى الشارع تاركة فى سريرها عروسة كبيرة ذات باروكة تشبه شعرها تماما فى اللون والتسريحة.

وفى الشارع تجد بعض أفراد الشلة فى الانتظار بالسيارات فيأخذونها إلى الملاهى الليلية للرقص حتى ساعات الصباح الأولى.

لم يكن ممكنا أن تنجح مليكة فى الزوغان من بيتها الذى يشبه ثكنة عسكرية فى تأمينه، ويعج بالحراس والمخبرين ورجال الأمن أشكالا وألوانا دون أن تلفت انتباههم أو يرصدوا تسللها الليلى، فتصادقت مع أحد المخبرين الليليين ليساعدها فى مخطط السهر.

ولم يكن ممكنا أيضا ألا يصل خبر هذه السهرات إلى أذنى الجنرال الذى بات وزيرا للدفاع وقائد القوات الجوية الملكية، فسألها ذات مرة هل تعرفين ناديا ليليا إسمه لاكاج؟!

أجابت بثقة وهدوء . لا.

ويبدو أن أوفقير كان مشغولا بولى عهده أكثر من أى شئ آخر، كان "رءوف" أول صبى رزق به في العائلة فأفسدته نسوة العائلة بكثرة الدلع والتدليل والتبجيل ، فنما رءوف ناعما أقرب إلى الأنثى، وكان شابا مراهقا له وسامة وجمال بارزان، شعر طويل وبشرة سمراء وخدود عالية فخشى الكنرال أن يكون لديه فى البيت شاب مخنث شاذ، فعامله بصرامة وعداء حتى وصلت إليه الأنباء عن غزواته النسائية، فارتاح باله واطمأن فؤاده.

كانت مليكة قد حسمت الأسئلة التى طفت وفتشت فى عقلها عما تريد ما هو نوع الحياة التى تحلم بها؟! هل السفر بالطائرات والتجول فى العواصم الأوروبية؟! هل يسعدها أن تلبس ملابس ممهورة بتوقيع إيف سان لوران أو كريستيان ديور أو غيرهما من كبار مصممى الموضة فى العالم؟! . هل تود السهر مع المشاهير والنجوم والشخصيات التى لا يراها العوام من البشر إلا على صفحات الجرائد والمجلات؟! هل يناسبها أن تمضى الصيف في جزر الكاريبى أو مونت كارلو أن على ظهر يخت خاص؟!

لم تكن تعرف ما تريد وهذا هو قانون الحياة عندما يتاح لك أن تمد يدك فتنال كل ما يخطر فى بالك فمن المؤكد أن ترتبك وتحتار وتعجز عن الإجابة

البسيطة لسؤال بسيط ماذا تريد؟!. ثمن الأشياء فى حياتنا قائم على قانون الندرة لا الوفرة الوفرة تجعل كل شىء رخيصا هينا تافها بلا قيمة. أما الندرة فتحيله حلما وأمنية ورغبة مكبوتة ومطلبا عزيزا، الهواء أعز الأشياء على الأرض فقد قيمته لوفرته فما الذى يمكن أن تطلبه ابنة الجنرال وهى تملك المال والجاه والملك وإذعان الآخرين كل شىء مهما كان متاح ومتوفر وفوق العادة!

لا يبقى إلا التمرد. أن تعيش التناقض مثل نجوم السينما كثير من عالم السحاب والرفعة مع كثير من قاع الأرض والتمرد، أن تلبس ثوب الموسلين الفاخر فى أول السهرة وتخلعه وتستبدل به بنطلون جينز وتى شيرت فى منتصفها، أن تحيى الضيوف بوقار وهيبة وبعد قليل ترقص حافية القدمين بجنون فى الحفلات التى يقيمها أبوها ويدعو إليها كبار الشخصيات وعددا من اللامعين والمشاهير!

جمعت مليكة بين حياة الارستقراطية وحياة الصعاليك معا، سواء فى القصور أو فى علب الليل فى المغرب أو خارجها.

كانت لندن محطة دائمة للعائلة، الأم تملك شقة فاخرة فى الهايد بارك، وفى عاصمة الضباب تعرفت مليكة على الممثلة اليونانية الشهيرة ايرين باباس، تلتقى بها فى شقتها الواسعة مع ضيوفها، يحتسون الفودكا والشمبانيا. يرقصون رقصة السيراكى اليونانية يضحكون ويغنون، ولا تغادر ابنة الجنرال شقة الممثلة إلا فى الصباح بصحبة ابن الملك فهد فى سيارته اللومبرجينى.

وفى باريس تذهب إلى ليلى الشنا قريبة أمها، تسكن معها ، وليلى ذات جمال باهر استلفت نظر المخرج السينمائى الأخضر حامينا، الذى بهره جمالها فأحبها، وأسند إليها أدوارا فى معظم أفلامه، كانت ليلى هى الحلم الذى تسعى خلفه مليكة، امرأرة متحررة مستقلة، تربطها صداقات مع أبرز نجوم الفن فى العالم الذين تعشقهم مليكة، وقدمتها ليلى إلى نجم النجوم معبود النساء آلان

ديلون. وكان اللقاء هو أول الخيط فى القصة الشهيرة التى ربطت بين ابنة الجنرال والنجم اللامع، والتى أفرطت الصحف فى الكتابة عن الحب المشتعل بينهما. لكن مليكة تنكر هذا الحب من جانبها، فهى كانت فى السابعة عشرة وديلون يبكبرها بسنوات كثيرة، ولا أظن أن فارق السنوات كان عائقا أمام هذا الحب فهى تنحدر من أسرة لا تعترف به وتفسر مليكة الأمر بأنها وجدت ديلون ناضجا أزيد من اللازم بينما هى مندفعة ومتهورة وعنيدة، والصداقة الخالصة البريئة هى الأنسب حتى وهى تقول إنها قابلته مرات كثيرة فى باريس ونيويورك والمكسيك وهو يصور بعض أفلامه. ولا يهم أن نسأل هل الصداقة كافية لتذهب إليه فى مواقع التصوير على بعد آلاف الأميال.

وفى شقة ليلى تعرفت على المنتج السينمائى جاك بيران وخاضت معه مغامرة صغيرة لم يكتب لها النجاح.

واعتادت مليكة أن تقضى إجازات عيد الميلاد فى نيويورك ولوس انجلوس، وفى رأس السنة من عام لا تذكره قابلت مرفين دايان ابن شقيق موشى دايان وزير الدفاع الإسرائيلى، وارتبطت معه بصداقة وعندما عادت وأبلغت أباها بالخبر سعد به وهنأها على حسن اختيارها!

وفى لوس انجلوس صحبت الأميرة نزهة أخت الملك الحسن الثانى الصغرى ، فانهالت عليهما الدعوات من كل أنحاء هوليوود. فالتقت بأشهر نجوم السينما العالمية. زارا جابور. إدوار روبنسون، ركس هاريسون ، ستيف ماكوين، فرانك سيناترا، جين فوندا ، وغيرهم.

وفى إحدى السهرات وقعت مليكة فى غرام كاوبوى السينما ستيورارت ويتمان، لم تتمالك نفسها من فرط اندفاع مشاعرها نحوه وكاد يغمى عليها لما نظرت فى عينيه الزرقاوين الساحرتين ، فباحت بما تشعر إلى المرأة الجميلة

التى تجلس بجوارها وهى لا تعرفها. كانت سيدة فرنسية تعمل عارضة أزياء، وظلت مليكة تصب فى أذنيها ما يعتمل فى صدرها والمرأة الفرنسية تقول لها. نعم أفهم هذا جيدا. لا شك أنه ساحر!

وفجأة أشارت إليها الأميرة نزهة وصرخت فيها: مليكة ماذا أصابك؟. هل جن عقلك ؟. أنت لا تأكلين الرجل بعينيك فقط أمام كل الحاضرين. أنت تبوحين بمشاعرك إلى زوجته.

وفى مرة كانت مليكة تراقص ابن النجم دين مارتن فى ملهى فصادفت ستيف ماكوين، الذى أخذها فى رحلة استكشاف فى صحراء كاليفورنيا.

لم ترد مليكة أن تعود من لوس انجلوس، طابت لها الحياة فى مدينة الملائكة والشياطين أيضا لكن الأب لا يوافق فهى لم تكمل تعليمها بعد، ووعدها إن حصلت على البكالوريا سوف يرسلها إلى الولايات المتحدة.

وخلال رحلة العودة إلى المغرب انفجرت قنبلة من الأسئلة فى رأسها كالتى تطايرت قبل فترة إلى أين تقودينى هذه الدروب المعبدة بالورود والرياحين؟! إلى الضجر والملل إلى الخيانة والخواء العاطفى إلى الاكتئاب والخيبة الى عدم الرضا وعدم الأمان والاطمئنان إلى الهروب فى حياة المجون وإدمان شرب الخمر وتعاطى المخدرات.

لم تستطع مليكة أن تجيب عن تلك الأسئلة العويصة ، فقد تولت عنها الأقدار الإجابة بالتفاصيل المملة ؟

وكانت الإجابات عنيفة قاسية بلا رحمة مثل لعنة كالتى أصابت أبطال الأساطير اليونانية الذين عصوا الآلهة، ووقعت أولى الإجابات مع انقلاب الصخيرات فى صيف ١٩٧١. بالتحديد فى ١٠ يوليو كان الملك الحسن الثانى يحتفل بعيد ميلاده الثانى والأربعين فى قصر الصخيرات عندما داهمت القصر

مجموعتان عسكريتان تابعتان للمدرسة الحربية الملكية بقيادة الجنرال "المدبوح"، فى محاولة للسيطرة على الحكم وفشل الانقلاب، وقتل مدبره وأعدم عشرة ضباط بينهم أربعة جنرالات لم يكن الجنرال محمد أوفقير من المتآمرين لكنه حاول تخفيف الأحكام عليهم فتصدعت علاقته مع الملك بالرغم من دوره البارز فى إخماد التمرد.

لم تهدأ الأوضاع فى المغرب وبدت بعيدة عن العودة إلى سابق عهدها، ولم يمض عام آخر إلا ووقع الانقلاب الثانى. وانتقل الجنرال أوفقير من خانة حامى النظام إلى خائن النظام، فهو مدبر الانقلاب الذى فشل أيضا. بخمس رصاصات وقيل إنه أطلقها على نفسه منتحرا ، لكن الانتحار بخمس رصاصات مسألة لا يقبلها العقل بسهولة.

ومن القصر إلى الصحراء من الرياش إلى الرمال، من مصاحبة النجوم فى لوس انجلوس إلى العيش مع الأشباح فوق مقبرة من الحفلات الناعمة إلى جدران السجن الرطبة، من تربية الحيوانات الأليفة إلى الهروب من العقارب المتوحشة والجرذان الخطيرة، من الشبع حتى التخمة إلى كسرات الخبز المغموسة بالذل، من المراقص وأضواء النيون إلى الزنازين والعتمة المخيفة من التدليل والنفوذ إلى الخشونة والتذلل للجنود، من التمنع على مشاهير القوم إلى مناقشة فكرة الاغتصاب من أحط الناس من امتلاك كل شىء إلى الحرمان من أبسط الأشياء.

٢٠ عاما فى الجحيم دخلته مليكة فى العشرين وخرجت منه فى الأربعين، دخلته فتاة مستهترة تطاردها الأحلام وخرجت منه امرأة جادة تفر من الكوابيس.

لكن مثل هذه التجارب فى الحياة هى التى تستحق أن تروى إنها مثل مصباح أيوجين تنير لنا الطريق لعلنا نهتدى بها ونفهم ما يدور حولنا ولا نصمت.

٢- الصفحة البيضاء[1]

امرأة ناضجة لم أعرف طيلة حياتى معنى الحزن أو أجرب مرارة الحرمان، حيث نشأت فى أسرة ثرية وتربيت تربية راقية جدا، تزوجت عقب تخرجى فى الجامعة من رجل محترم، عف اللسان عذب الفؤاد، تربطنى به صلة قرابة.

عشت معه أياما جميلة خالية من الهموم والأحزان أحاطنى بحبه الصادق وغمرنى بحنانه وبعد مرور سنة كاملة على زواجنا بدأ القلق يتسلل إلى حياتنا لعدم حدوث حمل وفى الحقيقة أن زوجى لم يكن يعبأ بهذه المسألة ولم يجعلها مادة للنقاش بيننا. بل كان يواسينى ويحدثنى عن الصبر وعدم العجلة الا أننى كنت ملهوفة ومتشوقة لخوض تجربة الأمومة بكل تفاصيلها.. وفى ليلة منيرة زين القمر بروعته وبهائه سماءها وجعلها مثل الصفحة البيضاء. ذهبت بمفردى إلي طبيب العائلة لاستشارته فى الأمر وبعد الكشف والفحص، ابتسم الطبيب فى وجهى قائلا: ألف مبروك.. أنت حامل في الشهر الثانى .. أغرقت دموعى وجهى وزغردت كل خلايا جسمى لأن حلمى فى الأمومة سوف يتحقق كما فرح زوجى بهذا الخبر وأخذ يهتم بى ويضمنى بيده حفاظا علي سلامة صحتى.

مضت فترة الحمل بلحظاتها السعيدة ووضعت طفلة غاية في الجمال والبراءة أسميتها "حنان" كان وجهها مثل البدر فى تمامه.. لكن فرحتى لم تكتمل ولم تستمر طويلا بسبب إصابة ابنتى باعاقة ذهنية طفيفة جدا اثر اصابتها بمرض الحمى الشوكية عقب مولدها بخمس سنوات مما جعل حياتى تتغير تماما وتتلون بألوان كئيبة مؤلمة.. كان مرض "حنان" بمثابة سكين حاد مزقت نفسى، ودفنت سعادتى فى أعماق بحر خوفى عليها وعلى مستقبلها وتوالت

---

(١) جريدة الوفد ٢٠٠٣/٤/٢٤.

الأيام وتعاقبت الفصول وكبرت ابنتى وصارت فتاة جميلة التحقت بالمدرسة واظهرت تفوقا منقطع النظير فى دراستها رغم اعاقتها الذهنية التى رفضت الاعتراف بها أو حتى الاستسلام لها وتمكنت من الحصول على شهادة الدبلوم التجارى.

كانت أحلام ابنتى بلا حدود وطموحها المتجدد سر نجاحها.. ورغم عزيمتها القوية وارادتها الفولاذية كانت تتملكها لحظات ضعف قاتلة بسبب الشعور بالنقص عن أترابها وفى أوقات كثيرة كانت تتقوقع داخل نفسها وتميل للعزلة والغربة عن بنات جيلها معلنة غضبها على سوء حظها الذى جعلها معاقة ذهنيا..

ذات يوم نصحنى الطبيب النفسي المعالج لها بضرورة تشجيعها على العمل حتى تشعر بالمسئولية وتثق فى نفسها وبالتالى تقهر اعاقتها الذهنية. تنفيذا لتعليمات الطبيب وفرت لها فرصة عمل بأحد مصانع العطور، فرحت ابنتى بذلك وبدأت حالتها تتحسن عند خروجها للعمل كما نالت استحسان المسئولين عن العمل بفضل ابتسامتها الوديعة وحديثها الهادئ..

ويبدو أن ابنتى سئمت العيش على رصيف الحياة وفضلت الهروب الى شوارعها ولأنها من سلالة عبقرية انقطعت من رحم البشرية بحثت عن الحب فى عيون كل من حولها وعندما وجدته أثار شهيتها وفتح نفسها للحياة.. حيث تعرفت ابنتى على أحد زملائها بالعمل وهو شاب وسيم. حسن الخلق أحست نحوه بالراحة.

وبمرور الأيام ومع كثرة الاحتكاك نشأت بينهما قصة حب طاهرة فى جوهرها البراءة وقمة التضحية وبدأت ابنتى تكتسب الثقة فى نفسها وقررت أن تخرج أنوثتها التى خشيت أن تموت بداخلها من سجنها لاحظت إهتمامها

بمظهرها وشياكتها ولا شك أن هذا ادخل السرور إلى نفسى وجعلنى أشعر أن الصغيرة غدت عروسا رائعة ذات بشرة بيضاء ناعمة وشعر ذهبى مثل سنابل القمح عندما تداعبها أشعة الشمس وقت الظهيرة ، هذا بالإضافة إلى خفة دمها وذكائها الذى تعدى عمرها بكثير.

دعوت الله تعالى اسمه من أعماق قلبى أن تدوم فرحتها وأن يقدر هذا الشاب الذى ملك عليها عواطفها واقتسم أرض مشاعرها.. ظروفها ولا يتخلى عنها مهما حدث خاصة بعدما تعلقت به ابنتى وأصبحت لا تستطيع الحياة بدونه.

اكتشف هذا الشاب بفراسة العاشق حقيقة الإعاقة الذهنية الخفيفة التى تعانى منها "حنان" ورغم ذلك تمسك بها وأصر على الزواج منها.. ويا لها من مفاجأة عصفت بعقلى وبددت فرحة ابنتى فقد صارح هذا الشاب والديه بكل شىء عن ابنتى وبكل أسى وأسف رفض أبواه زواجه من ابنتى ولأنه شاب مطيع امتثل لأمرهما ولم يفكر فى عصيانهما أو الخروج عن طاعتهما وهو موقف طيب يحسب له ولكن ابنتى تلقت الصدمة العنيفة واغلقت غرفتها على نفسها وراحت تبكى طيلة الليل والنهار.. وقررت العودة إلى رصيف الحياة ولا أعرف هل هذا قدرى أن أرى العذاب والقهر فى عينى ابنتى أم قدرها أن تتألم وتكتوى بنار اللهفة والشوق.

٣- مأزق الحيـــاة[1]

رجل اقترب من السبعين ، من أسرة كثيرة الأبناء، فقيرة الحال من تلك الأسر التى تدير حالها بالكاد، وتعيش حياتها على الكفاف كما يقولون تنبهت إلى الحياة فوجدتنى أكبر أخوتى، وبذلك شاركت أبى على أمره فى الحياة وتحملت عبئا ثقيلا يفوق امكانياتى بكثير.

صحيح أننا عشنا حياة جافة ومتقشفة، غير أن ما أنسانا هذا الشقاء أمى وحنانها الذى غمرتنا به والحق اننى منذ أيام حياتى الأولى خرجت إلى ميدان العمل حتى أكسب الرزق لأخوتى ويعلم الله ماذا فعلت حتى تحسنت أحوالنا المالية وتوفرت لنا الحياة الكريمة، رغم أن ذلك كان على حساب نفسي ومستقبلى، إلا أننى امتثلت لأقدارى.

وتفرغت تماما لعملى ورعاية أسرتى، تقدمت فى مراحل العمر لا شيء يشغلنى سوى أسرتى البسيطة بعدما انهارت أحلامى، وحمدا لله أننى ساهمت فى حدود قدراتى وظللت على هذا الحال إلى أن مرض أبى مرضا شديدا.

وبدأت معه دوامة طويلة بين الأطباء والمستشفيات، بددت خلالها كل ما أملك إلى أن رحل أبى وبكيت رحيله كثيرا وحزنت على حالى وما ينتظرنى من مجهول لا قدرة لى على احتمال صدماته.

على أية حال نجحت فى الحفاظ على أسرتى وميستواى المعيشى ، وما يحتاجه أخوتى من متطلبات حياة ومستلزمات دراسية وبذلت ما فى وسعى حتى لا أشعرهم بأى نقص ومرت الحياة على هذه الوتيرة حتى أنهى من أنهى تعليمه وشاركنى وقتها أكبر اخوتى فى تحمل المسئولية إلى أن تقدموا فى العمر وانشغل كل بحياته، ووقتها.

---

(١) جريدة الوفد ٢٤/٤/٢٠٠٣.

اقتصر دورى على خدمة ورعاية أخوتى البنات خاصة بعدما أصبحن فى سن الزواج، ووفقنى الله حتى استقرت كل واحدة ببيت زوجها وسعدت بهن كثيرا، وبذلك وجدتنى أفكر فى نفسى بعدما شغلتنى معركة الحياة، وأخذت اتطلع إلى الزواج وتكوين الأسرة الصغيرة والأبناء.

وحدثتنى أمى فى هذا الأمر كثيراً بعدما بلغت التاسعة والعشرين، حتى تعرفت على فتاة طيبة من بيت فقير، جمعتنا قصة حب عفيفة وسعد قلبي بها كثيرا. وهو ما دفعنى إلى أن أتقدم لخطبتها، واحمد الله أننى لقيت ارتياحا شديدا ورحب بى أهلها، وطالت الخطبة إلى أن جهزت نفسى وأعددت بيت الزوجية من الألف إلى الياء، وكشف لى خلال هذه الفترة عن معدن زوجتى الطيب وحكمتها فى تدبير أمورنا.

وشعرت أن الله عوضنى خيرا عن سنوات الشقاء والحرمان اللذين قضيتهما فى رعاية أسرتى وتم الزواج بسلام ، وعشنا أجمل لحظات أيامنا ولا أستطيع أن أصف مدى السعادة التى قضيناها والمشاعر الغامرة بالحب والتفاهم التى تبادلناها كل هذا وأواصل عملى فى هدوء، وارادت الأقدار أن تكتمل سعادتنا بعد عام زواج حين حملت زوجتى وفرحت بحملها كثيرا ، ورزقنى الله بطفلى الأول وكان ولدا، وهو مازاد من سعادتى وكان قدومه قدم خير علينا جميعا ، حين أكرمنى الله بعمل ثابت منه وفرت متطلبات أسرتى.

وظل الحال على ماهو عليه إلى أن أنجبت زوجتى للمرة الثانية والثالثة، وحمدت الله كثيرا على ذلك غير أن ضغوط الحياة أخذت تزيد علينا، وهو ما اضطرنى إلى العمل الإضافى، وبمرور الوقت تضاعفت الأعباء مرة ثانية فالأطفال يكبرون والتحقوا بمراحل التعليم، وراتبى ضعيف ولا يفى كل هذه الاحتياجات.

توالت الأحداث سريعا وأنا أعمل بأكثر من مكان كى اتمكن من الحفاظ على استقرار أسرتى إلى أن كانت صدمة العمر التى غيرت سعادتى حين أصيب أكبر أبنائى ببعض الآلام التى تطورت سريعا حتى تسببت له فى إعاقة مازالت تلاحقه للآن، يالها من محنة قاسية فأكبر أبنائى وسندى فى الحياة أصبح عاجزا يحتاج الرعاية والخدمة، وهو ما أحزننى كثيرا .

المهم أننى واجهت أقدارى وامتثلت لإرادة الله بنفس راضية، وعلى أساس أن الأمل مازال باقيا فى ابنى الآخر، الذى كان على قدر المسئولية، وشاركنى أعباء الحياة إلى أن أصابتنى الآلام التى تحولت سريعا إلى مرض مزمن اقعدنى عن العمل كارثة جديدة لم تكن فى الحسبان فأنا صرت طريحا للفراش، وأحتاج رعاية ونفقات باهظة ، وأدوية لا أول لها ولا آخر، والمسئولية تفوق قدرة أبنى بكثير، وهو ما اضطرنى إلى أن اتحامل على نفسى، وأعمل قد استطاعتى والحمد لله أنه بمرور الوقت تحسنت حالتى بعض الشىء ورجعت للعمل مرة ثانية، وعادت البسمة مرة أخرى إلى أولادى.

إلا أن سعادتى لم تكتمل فبعد أشهر قليلة عاودتنى الأمراض ودخلت هذه المرحلة رحلة طويلة وشاقة مع الأطباء دون أى تحسن ويوما بعد الآخر تزداد حالتى سوءا، ولا أعرف ماذا أفعل بعدما تبددت أموالى على الأطباء.

٤- السعادة المفقودة(١)

عندما تزوجت الرجل الذى اختاره قلبى، أحببته حبا يفوق كل حب زوجات الدنيا لأزواجهن، كان حبنا نموذجا فريدا من الرومانسية والطهارة، إلا أننى لم أستمتع يوما بهذا الحب بعد أن تزوجت اكتشفت أنى دخلت الجحيم بقدمى وبكامل ارادتى حتى أصبحت على قناعة أن النعيم إحسان والسعادة شعور داخلى لا علاقة له بالثراء والمظاهر الخادعة، كرهت نفسى وكرهت الفارس الذى كانت تحسدنى عليه كل صديقاتى، كان موقفى الرافض للتحرر المطلق وممارسات تتعارض وتقاليدنا الراسخة – هو مصدر تعاستى مع زوجى بالرغم من موقفه منى.

لم أصدق وأنا فى مستهل أيام شهر العسل أن أرى زوجى يغيب عن بيتى لساعات متأخرة من الليل، وليته يعود وحيدا لعروسه التى لم تكمل أيام شهر العسل من عمر زواجها ، بل يعود وفى صحبته شلة من أصدقائه رجالا ونساءً لاستكمال سهراته الصاخبة على أية حال تحاملت على نفسى تحليت بالصبر عساه يدرك مدى رفضى لذلك المسلك الذى تمثل فى تلميحات منى حين اتحدث معه، أنه لم يدرك مشاعرى بما عن عمد تجاهل موقفى.

إلى هنا وأنا اتحلى بالصبر أمام ذلك العبث الغريب على حياتى مادام ذلك يسعد زوجى ويدخل البهجة على نفسه، واكتفيت بالهروب من مسرح اللهو والمجون إلى فراشى ولم يدرك زوجى سر موقفى الرافض لذلك العبث فعاود فى اليوم التالى محاولة اقناعى أن أشاركهم اللهو الا أننى رفضت أيضا.

لم أحتمل تصرفات زوجى ، ولم أجد غير أن أفجر المفاجأة قلت : وهل من الذوق أن يأتى إلى بيت عروس فى شهر العسل غرباء من النساء والرجال ثم

---

(١) جريدة الوفد ٢٠٠٣/٤/٢٤.

يطلبوا حسن الضيافة ومشاركتى لهم هذا العبث حتى بزوغ النهار، وكأنى نطقت كفرا، جن جنون زوجى وانتابته حالة عصبية وسرعان ما تحول لإنسان آخر عندما لطمنى على وجهى وهو يقول صارخا - هذه حياتى ومن لا يعجبه حياتى عليه أن يفارقها.

كلمات زوجى جعلت الأرض تهتز تحت قدمى وكأنى أعيش زلزالا مدمرا أيقظ فى أعماقى الحقيقة المرة .. ولأنى يتيمة الأبوين كان لزاما على أن أتمسك بأحبال الصبر والتعقل وأوهمت نفسى أن زوجى لم يكن يقصد ما يقول ولذت بحجرى واستسلمت لدموع لم تنقطع ولحق بى فى فراشى يبدى الأسف والندم على ما بدر منه نحوى بدعوى أنه لم يكن يدرى مايقول.

أقنعنى زوجى بقبول مشاركة الشلة لهوهم ومرحهم فى سهرات الأنس، وحين استجبت لرغبة زوجى ومع الليلة الأولى رأيت وسمعت العجب العجاب، وفوجئت بزوجى يدعونى للمشاركة دون حمرة خجل تعترى ملامحه ودون إحساس بالغيرة وطبعا لم أتجاوب مع دعوة زوجى المفاجئ، وغير اللائقة والتى تتنافى وطبيعة نشأتى والتزامى الأخلاقى.

بهدوء انسحبت إلى حجرتى غير آسفة، ومن ورائى جاء زوجى يناشدنى البقاء حتى لا أسبب له الجرح أمام أصدقائه ، إحساس بالقهر انتابنى دون انغماس فى النوم ظللت اترقب شلة الأنس التى انقطع ضجيجها فجأة، وفى الصباح الباكر كان الغليان قد بلغ مداه فى عروقى حملت حاجياتى الخاصة.

ولذت بالفرار إلى بيت جدتى، وفور وصولى إلى جدتى أرسل لى زوجى برسالة هددنى فيها بأن يجعلنى معلقة، لا أنا زوجة ولا مطلقة، وبأنه سوف يعيش حياته كما يشاء، ويحكم نشأتى وبأنى لست ممن تحتمل وتصبر طمعا، فى ثروة زوجها أعلنت اصرارى على طلب الطلاق.

٥- كلمات الأمل(١)

لم أكن أتصور يوما أن أسطر محنتى ويشاركنى غيرى فيها حتى أخرج وأطفالى من المأزق الذى وضعت بداخله .. فأنا سيدة شابة فى السابعة والثلاثين من العمر من أسرة ريفية بسيطة من تلك الأسر التى تكافح حتى تصل بأولادها إلي بر الأمان ، لأب فقير لم يعرف فى حياته غير العمل والبيت ، وأم احتوتنا بحنانهاوعطفها.

تنبهت إلى الحياة فوجدتنى أعيش بين أبوين وشقيقة واحدة تكبرنى بسنوات قليلة، منذ أيام حياتى الأولى وأبى أشعرنى بالمسئولية وغرس بداخلى الإحساس بالعبء ومشاركته أمره فى الحياة، فى الحقيقة لم أعترض على ذلك وامتثلت تماما لأقدارى التى ضقت بها كثيرا. هكذا أمضيت حياتى والحزن يرافقنى بعدما حرمت مرح الطفولة وكل ما يتمتع به من فى مثل عمرى.

وكم من مرة عبرت عن هذا الحرمان لأختى التى كانت تطالبنى بالرضا والصبر، على أية حال كافحت مع أبى اكسب رزقى وأسرتى بلا راحة إلى أن بلغت العاشرة من عمرى، ووقتها أرسلنى أبى للعمل عند أحد أقاربى، ولا داعى إلي أن أحكى كيف مرت على هذه السنوات من عذاب وإهانة، فكان لا يعنى أبى سامحه الله سوى أجر عملى، واصلت حياتى على هذه الحال حتى تحسنت أحوالنا المالية كثيرا ووفقنى الله فى إعانة أبى حين تزوجت شقيقتى.

بعد كل هذه السنوات عدت إلى بيت أبى وكنت وقتها فى سن الزواج والحق أننى تمنيت كأى فتاة الزواج والأسرة، وكان حلمى يتحقق أكثر من مرة حين تقدم لى الكثير من الشباب، غير أننى لأسباب لا أعلمها كان يرفض أبى إلى أن بدأت أسمع همسا وكلاما حول مستقبلى حتى علمت أن أحد أقارب أبى تحدث معه فى أمرى، وأبلغتنى أمى بكل ذلك فيما بعد.

فى الحقيقة رفضته لما سمعت عنه من قسوة وسوء أخلاق لكن رحب به أبى وقبله، دون مشورتى وكأن الأمر لا يخصنى، ورفض دموعى وتوسلاتى، وتمت الخطبة وأنا أتمنى فشلها وبعد فترة طويلة امتثلت لاقدارى على أمل أن تقرب الأيام بيننا، ولكن تكشف لى يوما بعد الآخر المزيد من عيوب من سيشاركنى المشوار حتى نهايته، ولكن لم أنطق بكلمة واحدة.

قضيت بالأمر الواقع وتأقلمت مع ظروفى الجديدة حتى تزوجت في سلام وعشت أيام سعيدة بعدما أجبرتنى العشرة على حب واحترام زوجى، ويعلم الله أننى عاملته بكل ود وعطف، والحق بادلنى نفس العطف، وخلال اقامتى مع أهله التى استمرت فترة بسيطة أديت دورى نحوهم بلا تقصير، وبذلك ملكت قلب أمه واخوته، وكنت فى هذه الأثناء قد عثرت على عمل بعدما بدأت أشعر بثقل العمل على زوجى فخرجت إلى ميدان العمل. وساهمت فى تحسين مستوانا المعيشى، وكم أسعد ذلك زوجى ، ظللت أكسب لقمة العيش مع زوجى إلى أن استشعرت العمل، وسعدنا به كثيرا حتى رزقنى الله بابنتى الأولى التى فرحنا بها. وكانت فاتحة خير علينا كما يقولون ، فوقتها حصل زوجى علي عمل ثابت، وبدأنا نترك الحياة الجافة والمتقشفة، والحمد لله أننى وفقت بين وضعى كزوجة وعاملة تقدم كل الرعاية والخدمة لزوجها وأسرتها، صحيح اننى تحملت الكثير من المصاعب ألا أننى نجحت فى تحقيق الاستقرار لبيتى.

واصلت حياتى فى العمل اخرج فى الصباح ولا أرجع البيت وشاءت الأقدار فى هذا الوقت أن أحمل للمرة الثانية ، وأنجبت أيضا طفلة حباها الله بخفة الروح والجمال، وكان طبيعيا أن تتضاعف الأعباء عشرات الأضعاف وبذلك تحملت وزوجى كثيرا من صعوبات الحياة، ولا أخفى عليك أننى كثيرا ما تسامحت عن نزواته التى ظهرت بمرور الوقت حينما كان يطيل السهر خارج البيت ويعود فى حالة سكر حفاظا على أولادى وهدوء حياتنا.

غير أنه بمضى الوقت بدأ يزيد فى تصرفاته الحمقاء، وكان أولها عدم الخروج للعمل والتمارض بصفة دائمة وهو ما أحدث فى نفسى صدمة بعدما اعتاد اهانتى وضربى لمجرد حثه على العمل انه قبل أن أعمل أنا ويتفرغ هو لشئون البيت والأولاد، حاولت قدر استطاعتى أن تمضى حياتنا دون أية خلافات أو مشاكل حتى زاد فى اذلالى بسببها ذهبت أكثر من مرة غاضبة إلى بيت أهلى ، وكانت آخر هذه المشاكل أنه يريدنى أن أحمل مرة ثالثة حتى أنجبت له الولد، وقابلت هذا بالمعارضة على أساس رعاية أولادنا ، فى ظل ضيق الحال، غير أن زوجى سامحه الله بأجاءنى بما لم أتوقع فبعد عشرة دامت سنوات طويلة طلقنى.

فى الحقيقة أن طلاقى لم يكن غريبا على فتصرفاته الحمقاء طوال رحلتنا كانت تنذر بالكارثة غير أن ما احزننى هو مصير أطفالى الصغار، على أية حال تقبلت أقدارى وتحملت المسئولية بمفردى والحمد لله اننى قمت برعاية أطفالى والحقتهم بالتعليم بعدما تحملت متطلباتهم من الألف إلى الياء بعد أن رفض زوجى اعانتنا، واكتفى أن يعيش لنزواته، وكل ما فعلته هو أننى احتضنتت أولادى ورفضت أكثر من زوج خشية ضياعهم.

الآن أعيش حياة عصيبة بعدما تركت المأوى الذى كان يحمينى وأولادى ، وصرت غير قادرة على تدبير لقمة العيش، وكل ما أدبره لأولادى من اعانات أهل الخير، بحق لا أعرف كيف أرعى أولادى ولا أجد مأوى يشملنا ولا مصدر دخل يحمينا من ذل السؤال.

٦- قسوة الأيام(١)

أنا امرأة تعيسة الحظ، كئيبة النفس، فقدت لذة الحياة وسحرها منذ زمن بعيد، طحن الفقر عظامى وذل الاحتياج والعوز آدميتى .. ولدت وسط أسرة فقيرة تعانى من قسوة الجوع وتئن من برد الشتاء لأب طيب قليل الحيلة وأم مسكينة أفقدها المرض عافيتها وأجبرها على ملازمة الفراش.

لم ألتحق بالمدرسة لضيق الحال وتعثر ظروف الأسرة المادية ومكثت بالمنزل كى أساعد أمى فى تربية وتدبير شئونه ومضت الأيام والسنوات كأنها فى سباق وتفتحت زهرة انوثتى وراحت تعلن عن أريجها وفى مرحلة الصبا نضج عقلي واتسعت مداركى وبدأ الشباب يطلبون مقابلة والدى لطلب يدى للزواج والحق أن أبى كان شديد المرونة معى ودائما كان يحتكم لرغبتى ولم يفكر مطلقا فى إجبارى على الزواج من أحد.

وفى مساء رائع طرق منزلنا شاب وسيم الملامح وتنبئ طلعته بالطيبة الخالصة وبذكاء الفؤاد أدركت أنه جاء لخطبتى من والدى والحق أننى شعرت بالراحة نحوه وتمنيت أن يكون نصفى الآخر.. وجاءت الأحداث كما توقعت وتخيلت وعندما أراد والدى استطلاع رأيي، غمرنى الكسوف وتلجم لسانى فى حلقى وبالطبع أحس والدى وأيقن أننى موافقة على الاقتران بهذا الشاب.

فى حفل عائلى متواضع حدثت الخطوبة وانطلقت الزغاريد من الأفواه معلنة عن مدى فرحتى وسعادتى ... وبعد عام ونصف العام استطاع هذا الشاب الذى اخترته بقلبى وعقلى معا تجهيز عش الزوجية وفى ليلة أكثر من رائعة تم عقد القران وحدث الزفاف وبدموع ساخنة وقلب حائر بين الفرحة والخوف على والدى ووالدتى انتقلت إلى عش الزواج الحلال. واثبتت الأيام الأولى للزواج حسن اختيارى حيث تعامل زوجى معى بشكل أكثر من رائع وراح يداعبنى ويلاطفنى.. وفى بداية الزواج كان لسانه ينطق بأعذب وأطيب الكلمات.

---

(١) جريدة الوفد ٢٠٠٣/٤/٢٤.

وأثمر هذا الزواج بعد عدة سنوات عن أربعة أولاد محمد، ممدوح، إبراهيم، مريم، وللأسف لم تكتمل فرحتي بالإنجاب لأن ابنى إبراهيم الكبير يعانى من اعاقة ذهنية وجسمية كاملة. وشقيقه ممدوح يشكو من نفس الإعاقة ولكن ما باليد حيلة فهو القضاء الذي لا نملك إلا الدعاء باللطف فيه ... على كل حال زادت الأعباء فوق كاهل زوجى الذي راح يعمل ليل نهار للوفاء باحتياجات الأسرة وتلبية كل طلباتها.

ومضت السنوات ثقيلة باردة بسبب ضيق الحال، وفجأة بدأت شخصية زوجى تتغير حيث تخلى عن هدوءه وراح ينفعل ويتشاجر معى لأتفه الأسباب ... وكثيرا كان يهددنى بترك المنزل والتخى عنى وأولادى والحق أننى كنت لا أصدقه أو أهتم بتهديده لأننى كنت أرى فى عينيه حبا كبيرا وعظيما لى ولأولاده

ولأول مرة خاب ظنى وحدث مالا يحمد عقباه غادر زوجى المنزل وتركنى وأولادى نسبح فى دوامة يستحيل منها الخلاص وفى غمضة عين أصبحت وحيدة تائهة ومسئولة عن أربعة أولاد يدرسون بمراحل التعليم المختلفة ومن بينهم ولدان معاقان يتضرران من الإصابة بإعاقة ذهنية وجسدية كاملة ... وعلى أثر ذلك ضاقت السبل أمامى واشتدت بى المحن وتراكمت على الديون وعجزت عن سداد إيجار الشقة التى تحمينى وأولادى من الضياع والتشرد واضطر مالك العقار إلى طردى وأسرتى فى الشارع ... حاولت الخروج للبحث عن عمل من خلاله أوفر احتياجات أولادى وسداد إيجار الشقة إلا أننى وجدت صعوبة فى الحصول على عمل ... كما أننى اكتشفت أن الأمراض دبت فى جسدى وتبخرت عافيتى وأننى غير قادرة على بذل أى مجهود مهما كان بسيطا.

إننى فى مأزق صعب وأشعر بمرارة الصبار فى فمى بعدما تخلى عنى زوجى وتركنى وأولادى نواجه متاعب وشراسة الحياة القاسية ... ولكونى فقيرة ولا أملك من حطام الدنيا شيئا وليس لى من يقف بجانبى أو يمد لى يد العون أشعر بالعجز الكامل ولا أدرى كيف ستكون أيامى القادمة وكيف ستكون النهاية.

٧- بين العقل .. والعاطفة !

لوقت قريب ما كنت أعرف أن السعادة تلمع فى حياة الإنسان كوميض البرق فى سماء ملبدة بالغيوم.. والحب كالحرب :

مناورة مفاجأة فتطويق فتسليم.. وأصبحت حين أراها أحس بروحى تسعد لحظات تمر كلمح البصر.. وتنقضى كحلم جميل.. لم أمهد لهذه العاطفة الجياشة ولا توقعتها وأنا أعمل فى بلاد الغربة حيث أعمل منذ خمس سنوات .. لكنى رأيتها فى إحدى المناسبات قبل عامين ، وكانت بصحبة زوجها.. فما أن وقعت عليها عيناى حتى انجذبت لحسنها كما ينجذب مسمار إلى مغناطيس.. وزاد عشقى لها لما سمعت عن خلافاتها الحادة مع زوجها.. ودفعنى شوقى إلى حيث أجدها.. وذات مرة تجرأت واقتربت منها وقلبى يخفق خوفا، فى صدرى تسرى رهبة.. كنت أخشى لو صارحتها بنبض قلبى، تكون ردة فعلها عكس ما اشتهى فيحرم على مجلسها..

لكن الظروف مهدت لنا فرصة الاقتراب.. وما أن تلاقينا حتى التفت إلي فى ارتباك ما لبث أن غاص، وأشرق وجهها دون أن يفتر ثغرها عن اللؤلؤ النفيس، واكتفت بهز رأسها فى دلال هو دليل على أنها تبادلنى نفس مشاعرى..

ومنذ ذلك اليوم وكلانا يتحين فرصة اللقاء ... المشكلة أن عذابى يزداد يوما بعد يوم وحالتى تتدهور قلقا على المصير الذى أنقدت إليه فى حب هذه المرأة ... فلا أمل يجمعنا ... ولا أنا قادر على نسيانها فهى كل حياتى ولا أستطيع الحياة بدونها...

٨- الرجل النهائى

أيقظنى من كابوسى اليومى المستمر صوت صديقى الوحيد يسألنى عبر الهاتف ، إلى متى تحكم على نفسك بالانقطاع عن الدنيا والناس.

إلى متى تتحمل عذاب الوحدة !!

وقد أجبته ذلك اليوم بما يثقل صدرى.

وما هو البديل غير انتظار المكتوب وما استقر عليه من قرارات.. وبالقطع لن يتأتى لى ذلك الا بمراجعة موقفى من الدنيا التى صارت تشعرنى بالسأم والضجر.. قد استغرق فى مهمتى أسابيع أو وربما أكثر أو أقل.. من يدرى ؟!

وانتهت المكالمة وظللت على حالى أفكر.. وأعيش وسط دوامة انعزالى، وأحاول الهروب فى تعاطى الحبوب المهدئة. أخذت أهرب وأهرب وفى النهاية أعود إلى فراشى المهجور، أطلق فى أناته العنان لانفعالى وغضبى.

لم يكن أمامى خيار آخر، بعدما تحول البيت إلى جحيم بوفاة أمى العام الماضى ، وبعد انتهاء مراسم العزاء تزوج أبى بغيرها لتحتل مكان أمى .. ومضت شهور ووالدى لا يطيق رؤية أحد ولا يتحدث لإنسان.. فى البداية بررت تصرفه بأنه حزن على رفيقة العمر.. ثم اكتشفت أنه نسي قديمه، وما يتصرف على هذا النحو الا ليرضى زوجته الجديدة، فهو لا يغدق حبه وحنانه إلا على عروس الغفلة.. لا يتسامر إلا معها.. ولا يبتسم إلا فى وجهها.. ومع الآخرين ونحن منهم يلبس قناع .. النكد.. رحت أبحث عن الحنان بين أخوتى.. وفشلت .. فأخى الأكبر ورث الغضب عن أبيه.. وأختى غرقت في مشاكلها بعدما تشاجر والدى مع زوجها وحرم عليها زيارتنا.. وبقطيعتها فقدت الصدر الحنون الباقى بعد أمى.

لست صغيرة السن لتجتاحنى مثل هذه الأحاسيس.. فمنذ شهور بلغت الثالثة والعشرين.. أنا أيضا موظفة باحدى الشركات مع ذلك أشعر بجفاف عاطفى فظيع وأتوق للحظة حنان.. لكنى فقدت كل شىء ، كما ترين..

٩- خطوط باهتـة

كغيرى من شباب العشرينات تصورتنى ألف على شاطئ.. وأحلامى على الشاطئ الآخر.. لكن بين الشاطئين نهر نعبره.. أو قنطرة نمشي عليها.. وكان هو الرفيق فى هذا العبور.. وما تصورتنى -أبدا- أصل لشاطئ آخر مهجور. لألمح هناك شبحاً.. بل حطام إنسان أدمته عاصفة بشرية، وأنا أدنو منه أكثر، أمشط ملامحه وأتساءل عمن يكون .. فاتعرف فى هذا الشبح على نفسى.. انه أنا بالفعل.. أما حكايتى فسوف أسوقها لك فى سطورى التالية :

أنا امرأة فى العشرين مؤهلى متوسط تماما مثل حظى.. ويرجع إيمانى بهذا الحظ العاثر إلى عام مضى حين تزوجت بشاب جامعى، بعده فترة خطوبة غير عادية.. كانت اتحادا .. أحدنا يحاول إخفاء الآخر فى صدره وبين الضلوع.. مشاعر حملتنى على سحابة وردية لأرى أحلام مستقبلى تتحقق، وشمس حياتى تسطع فتضىء الدنيا حولى.

حملت هذه الصورة المشرقة المتفائلة بين ضلوعى حتى ضمنا بيت واحد.. وفجأة وجدت ألوان الصورة تبهت وتطمس معالمها.. وما تبقى منها غير خطوط مشوشة باهتة تعلن نهاية زواج .. ومشوار حياة لم يبدأ بعد.

قطعا لم أسع لهذا المصير، ولم أكتب كلمة النهاية بحماقة ارتكبتها أو ذنب جنيته.. لكنه زوجى الذى تغير بعد الزفاف إلى النقيض.. تحول إلى مخلوق مخيف، لا يعرف لسانه غير كلمات السباب من كل لون وصنف.. يثور لأتفه الأسباب.. يشك حتى فى خياله، ويمتد شكه ليطول أهلى ويخصهم بالنصيب الأكبر.

زيارة أمى لبيتى -مثلا- تعنى قيام ثورة أهلية .. فهى فى نظره رأس الحية التى ترسم وتخطط لترسى قواعد الفساد.. وأن دبرت زياراتها فى وجوده

ليكون على دراية بما يدور بيننا، تظل ثورته مشتعلة، فمنظر أمي يبعث في نفسه النكد والاكتئاب..!!

قد تتساءلين ، وهل هناك من سبب لعدوانية زوجي تجاه أهلي :

أقول : السبب نسجه أوهامه.. فهو يتصور أهلى طامعون فيه، ولا يسمعون إلا لسلب نعمته .. والمبرر قائمة «العفش» التى أصر عليها والدى حماية لحقوقى.. ورغم نواياى المعلنة والدفينة على التنازل عنها وعن جهازى كله إن كان يزيل أسباب الخلاف.. إلا أن زوجى رفض هذه المحاولات وكأنما كان يسعى لهذا الوضع كى يجد مبررا لمقاطعتهم !!

لقد تحولت حياتى بفضله إلى جحيم لا يطاق على أن أعيشه وأتجرعه كل يوم دونما شكوى أو اعتراض.. ولأنى مازلت باقية عليه. وأخشى على بيتى من الخراب، أغلقت فمى وتحملت على أمل انصلاح حاله ويتأكد من حبى له وحسن نية أهلى.

لكنه بقى على عناده وصلفه، وكلما مرت بنا الأيام تأدت أنه لن يتغير .. علي العكس يزيد سوءاً لدرجة طردى من البيت أكثر من مرة.. والآن ما عدت قادرة على تحمله، فهل أطلب الطلاق، أم هناك حل آخر.

١٠- بروفة حب !

كنت مشغولا بقصتى معها.. ومرت الساعات وأنا فى تفكير عميق حتى إذا ما انتهيت من عملى، وجاء ليل جديد، ودخلت فراشى لاستريح قليلاً.. لكن لم تهدأ لى خالجة.. ولم يغمض لى جفن.. كانت المشاعر كلها تتزاحم فيرأسى.. تضغط على صدرى ، وتلح على فى اصرار وعناد.. تعود بى إلى يوم التقيت بها صدفة، ووجدتنى أقع لأول مرة فى حب جارف ملأ على كيانى دون تمهيد ولا انذار.

لكن رغم مشاعرى هذه، ورغم غليانى كالبركان من الداخل، إلا أننى كتمت مشاعرى ولم أبح بها ولا لحبيبتى..!!

آه لو عرفت كم عانيت وأنا أغلف عواطف ثلجية سميكة لا تكشف عما وراءها ، بينما كيانى كله يتوق شوقا إليها.. وكنت أتمنى لو أكون ظلها واتبعها حيث تكون وان ذهبت لآخر الدنيا.. ويكفينى منها هذا الجوار، أرنو إليها من بعيد.. كدت أستجيب لهذا النداء الحزين فى عينيها، كأنما يحثنى على اتخاذ خطوة ما، أقلها الاعتراف بحبى لها.. مع ذلك لم أتحرك.. لماذا؟!! حقيقة لا أعرف!!

وانتهت قصة حبى بفشل ذريع !!

تزوجت فتاتى بغيرى ، واضطررت أن أطوى حبى وأسقطه فى جانب بعيد من قلبى.. وانهمكت فى عملى - بعد فترة - نسيت حبى ، وحواسى سئمت العمل، ولم أعد أرغب فى شيء ... أصبحت لا أقرأ وكنت عاشقا القراءة... لا أريد سماع صوت إنسان ولا ممارسة هواياتى المفضلة وفضلت أن أعيش معزولا عن العالم ، وأكداس الضباب تهوم داخل جمجمتى ، ولم أعد أتحرى ولا آبه فيما إذا كنت حقا فقدت ذاكرتى نهائيا.. أو تخليت عنها وأهملتها.. لم أعد

أدرى فيما إذا كنت قد ولدت لحظة دخولها قلبى، أم فى التاريخ الذى تحمله شهادة ميلادى.. أم أنى حملت شهادة وفاتى بزواجها من الآخر؟!

ما أصبحت أدريه أن الوقت يمر بى بطيئاً مملا، وأنا أفور من الداخل، وكلى اشمئزاز من تلك الحياة التى أعيشها، ولا طعم لها فى حلقى سوى العلقم.. ومجرد ذكريات تافهة وحاضر فارغ ومستقبل مظلم.. واكتشفت أن محاولتى نسيانها، ترسخ وجودها فى كيانى أكثر .. وأكثر .. وتحيل حياتى إلى جحيم لا يطاق يدفعنى – أحيانا – للتفكير فى الانتحار!!

بالمناسبة .. قد تتصورين صاحب هذه المشكلة إنسانا فاشلا فى كل جوانب حياته.. أو عاطلا يبحث عن نزوة تلهيه.. أو مراهقا يعيش قصة حب خيالية.. وأنا عكس ذلك تماما.. فأنا خريج إحدى الكليات النظرية، وأشغل وظيفة لا بأس بها.. حالتى المادية ميسورة والحمد لله ومظهرى لا تنقصه الوسامة.. فقط أنا شاب خاض أصدق تجربة حب .. وفشل.. فماذا أفعل!!

١١- المصارحة لا تفيد !

منذ سنوات وأنا أراقب شقيقتي وأتابع نبض قلبها.. كانت أختي غارقة في حالة حب، لا أدرى أكانت من طرف واحد أم يبادلها قريبنا المشاعر.. المهم أنني كنت صغيرة في نظرها فلم تبح لي.. لكني أحسست بها ، وتوقعت مثلها أن يتوج هذا الحب بالزواج.

أما الرياح فلم تأتي بما تشتهى السفن.. فالأيام ظلت تمضي متسارعة وقريبنا لا يتحرك، وإن كان يردد في كل مناسبة أنه يكن لها المودة والاحترام.. ويبدى استعداده لتلبية كافة ما تطلبه من خدمات.. وأخيرا صعقنا بخبر خطبته على فتاة يتردد داخل الأسرة أنه كان على علاقة بها.

بالطبع وقع الخبر على أختي كالصاعقة، وأنا واقفة عاجزة عن تخفيف الألم والعذاب عنها.. أحيانا- أفكر في مصارحة قريبنا بحب أختي ليحدد موقفه منها.. ثم أحجم عن هذا التصرف كي لا أسيء إليها.. فماذا أفعل وكيف أتصرف؟!!

٢ ١- أتر ضـــاه

حباه الله منذ الصغر وجها فائق الحسن، حتى أن النسوة من جيرانهم كن يتنافسن فى طلب رعايته حين تنشغل أمه بأى شأن من شئون البيت، ويتسابقن فى تدليله وشراء الحلوى له، وكن يطلن النظر فى وجهه متأملين قدرة الله على صنع الجمال البشرى، آملين أن يرزقن بأطفال فى مثل جماله، وعندما كبر ووصل لسن النضج أصبح فارع الطول، وتحول إعجابهم إلى عشق ومواعدة ومطاردة، وتسليم كامل للجسد والمشاعر، فعرف كل شىء وهو بعد لم يتعد الخامسة عشرة من عمره.

لما أنهى دراسته الجامعية، عين فى وظيفة لا تتطاول أحلام أى شاب لأن يحصل على مثلها، جاءته عن طريق ابنة أحد كبار المسئولين ، كانت زميلة له فى الجامعة وهامت به عشقا، ولكن أباها رفض أن يزوجها له، فلقد كان رجلا ينظر لما هو أعظم مما هو فيه، ويتمنى أن يصبح يوما ما أحد الوزراء، استدعاه إلى مكتبه وفاوضه على أن تكون له وظيفة فى مؤسسة من أهم مؤسسات الدولة، مقابل الاختفاء من حياتها، ورضى، وتمت الصفقة، فلم يكن راغبا فى الارتباط بامرأة واحدة، وزوجها أبوها من ابن شخصية لها ثقلها السياسى، ولكنها هى لم ترض بما تم، وإن قبلت الزواج ممن أراد لها أبوها أن تتزوج منه، وظلت على علاقتها به تواعده فى شقته، إلى أن علم السياسى، الكبير بخيانتها لابنه، فاستدعى أباها مزمجرا فى وجهه وهدده وتوعده بنقض كل الوعود والعهود، ما لم تبتعد ابنته عن ذلك الحيوان، لأن وضعه الاجتماعى لا يسمح بطلاق ابنه لابنته خاصة وأن ابنه يحب زوجته.

وسارع الأب باستدعائه، وشهر فى وجهه سلاح الرفت والمطاردة بالعذاب فى كل ركن من أركان الدنيا إن هو لم يبتعد عن مواعدة ابنته، فما كان منه إلا أن تخلص منها سريعا بتمثيلية شاركته فى إحكام حبكتها إحدى عشيقاته.

كان فى إحدى زيارته لبيت الأسرة حينما نبهته أمه إلى أنه يسعى حثيثا نحو الأربعين، وأن فرصته فى اختيار عروس سنها تناسبه تخبو، لكنه لم يهتم بما قالته، ولا أظهر قلقا أو استجابة لكلامها وإن أصاب عقله الارتباك. فلقد أمست تشغله كثيرا تلك الشعيرات البيضاء التى يعثر عليها بين خصلات شعره، كما أنه أصبح يتساءل كثيرا:

ما نهاية هذا كله؟

بل إنه فى بعض الأحيان لا يفتح باب شقته لكثيرات ممن كان يشتهى زيارتهن فلقد أصابه ملل غريب من إيقاع حياته، ولقد قابلت أكثرهن تصرفاته بالسخرية والقول بأنه قد شاخ !!

كما أن فكرة الزواج وأن تكون له أسرة وعيال تدق على رأسه كلما تعثر فى أحد زملاء الجامعة يداعب عياله، لكنه كان يتخلص من أفكاره بالغرق فى نزواته فلقد بات لا يثق فى امرأة، فكلهن ميسرات لرغباته ونزواته، فلماذا يتزوج لتفعل زوجته مع غيره ما فعلت النساء معه هو؟!

رآها فى الحفل السنوى الذى تنظمه المؤسسة التى يعمل بها ويحضره جميع العاملين بمختلف الفروع، بهر بجمالها وأناقتها، هى أيضا أعجبت بأشياء كثيرة فيه، فلقد جذبتها أناقته وتدله النسوة به، وإن أخافتها جرأته فى معاملتهن وما سمعته عن صولاته وجولاته فى عالم النساء لكن أن تقتنصه هى لنفسها ويكون لها وحدها، فهو أمر يرضى أنوثتها، ويجعل منها سيدة نساء المؤسسة وشركاتها ، لذلك أبدت استجابة لمداعباته، وتركته يقترب منها، ويتقرب إليها.

تواعدا.. التقيا.. وتكرر بينهما اللقاء وطيلة ما كان يدور بها فى المنتديات ظل يراودها عن جسدها، استخدم معها كل الأساليب التى نفذها مع غيرها ، لكنه بعد كل محاولة، وحين يظن أنه قد وصل إلى نقطة التسليم، يفاجأ بها تنظر إليها فى دلال وتقول :

- هل فرغت من عرض تسجيلاتك القديمة يا حبيبى؟

حاول أن ينساها، ولكنه كان يجدها هى بين أحضانه ، حتى أصبحت كل النساء هى؟

انتابه الغيظ، قرر أن يستدرجها إلى شقته، ولشكه فى تسليمها وحتى لا تقاومه قرر أن يضع لها مخدرا فى مشروبها وبدأ ينفذ مخططه، ادعى أن أمه فى غاية المرض وأنها قدمت من قريتهم ليذهب بها إلى طبيب كبير، وأنه يريدها أن تتعرف عليها كزوجة المستقبل لابنها الوحيد.

لم تصدقه فى بادئ الأمر، لكن حروفه كانت منتقاة، وكان يتحدث بصدق شديد اقتنعت، رافقته إلى حيث يسكن بأخد الأحياء الراقية، حين فتح باب الشقة لم تجد أحدا، تراجعت تريد الفرار، قال ماسحا نظرات الشك من عينيها :

- ان أمى فى حجرة النوم تلازم الفراش فحالتها غياة فى السوء.

صدقته ودخلت إلى الصالة، واطمأنت أكثر حين قال إنه سيدخل الحجرة ليوقظها تركها واختفى خلف الباب للحظات، ثم عاد ليخبرها بأنها فى حال كالغيبوبة وأنها مستغرقة فى نوم عميق أشفق أن يوقظها منه ووعد أن يوقظها بعد لحظات واقترح أن يعد لهما كوبين من العصير، وافقت ، وإن داخلها الشك فى تصرفاته والتعبيرات غير الصادقة التى تظهر على وجهه أثناء حديثه فجلست متحفزة فى مقعد قريب من باب الشقة.

دخل المطبخ أخرج من المبرد كوبى العصير المعدين من قبل، أسقط داخل أحدهما حبة مخدرة، ثم عاد محاولا أن يخفى تحفزه وسروره بقرب لحظة الانتصار، ناولها الكوب فتناولته شاكرة، قال وهو يستدير مبتعدا لكى يعطيها مساحة ثقة أكبر :

اشربى .. وسوف أحاول ثانية أن أوقظ أمى.

تركها وتقافزت خطواته إلى الحجرة المغلقة فتح الباب ولم يغلقه ثم خرج صوته هامسا : أمى .. أمى .. استيقظى يا غالية.

خرج بعد لحظة وجذب الباب خلفه وقال :

إنها مازالت تغط فى نوم عميق.

ثم نظر من طرف خفى إلى كوب العصير الذى بيدها لم تكن قد تناولت منه سوى قطرات، تساءل مندهشا:

- إنه عصير البرتقال الذى تحبينه.

قالت له وهى تضع الكوب على المنضدة

أحس بغرابة مذاقه، لعلك أعددته منذ فترة فتغير طعمه.

قال محبطا:

هل أعد لك كوبا من الشاى .. أنت تحبين الشاى .. هه.

قالت :

- إذن أعده أنا.

نهضت إلى المطبخ، دخل خلفها قائلا :

- سأريك مكان الشاى والسكر.

التصق بها عامدا وإن تظاهر بعدم القصد انتفضت وقالت غاضبة:

- وبعد .. سأترك الشقة فورا.

انتابه حال من اليأس، قرر أن يهاجمها بشدة، قاومته، ولكنه كان الأقوى، وحين جذبها إلى خارج المطبخ ودفع بها إلى الأريكة أدركت كذبه والخطر الذي يحيق بها فراحت تدفعه عنها بكلتا يديها وقد انسابت دموعها، وهى تصرخ عاتبة وكلماتها ترتعد زاجرة:

حرام عليك .. أترضى هذا لأمك أو لأختك؟!

وأخذت تكرر جملتها لاهثة من الغضب:

أترضاه لأمك أو لأختك؟!

وجد نفسه يعتدل مبتعدا عنها، وقد ماتت فيه كل مشاعر الرغبة ارتمى إلى جوارها واضعا يديه فوق وجهه، وقد راح فى حال من اللاوعى ، ووجد نفسه يقف بين يدى كلمات قرأها فى كتاب أهداه له صديق فالموقف هو هو كما قرأه فى أحد فصول الكتاب، فلقد كان رسول الله ﷺ يجلس فى مسجده بالمدينة المنورة وقد وقف فتى صغير بين يديه يسأله مرتجفا وهو يقول :

- إذن لى بالزنا يا رسول الله .

وغضب الصحابة من صفاقة الفتى وزمجروا وتنافروا من حوله يريدون أني يفتكوا به، ولكن النبى ﷺ أشار إليهم ليتركوه ثم قربه منه ورد على طلبه بسؤال، قال :

- أترضاه لأمك؟

انتفض الفتى قائلا:

- كلا

سأله - صلى الله عليه وسلم- :

- أترضاه لخالتك؟

قال الفتى :

- لا.

وظل النبى ﷺ يسأله عن مدى قبوله للزنا فى دائرة من يعزون عليه والفتى يزداد رفضا حتى كره الكلمة والفكرة وبكى مستغفرا الله ومعتذرا عن

طلبه، رفع كفيه من فوق وجهه وقد امتلأ خجلا من تصرفه قال هامسا وهو لا يستطيع النظر إليها.

– هيا لأرافقك إلى بيت أسرتك.

ثم سبقها إلى الباب جففت دمعها وتهندمت ثم لحقت به وحين نزلا إلى الطريق فأجاها بعدم اصطحابها فى سيارته كما تعودا بل صحبها إلى محطة المترو وركبا معا وحين وصلا إلى حيث تسكن تراجع قليلا ثم ابتعد عنها بلا كلمة واحدة حين اختفى كان قلبها ينزف ألما فهى تشعر أنها لن تراه ثانية.

ألقت بالتحية على من صادفت من إخوتها واتجهت فى خطوات متعثرة إلى حجرة نومها وما أن أغلقت خلفها باب حجرتها حتى ارتمت على الفراش وقد أجهشت بالبكاء.

لا تدرى كم من الوقت مر بها وعليها ولكنها وجدت يد أمها تلمس كتفها وتخبرها بأن أباها يريدها أن تذهب إليه مسحت بقايا الدمع من عينيها بخفة حتى لا تراها أمها باكية، وقالت لتطيل من الوقت:

– سأبدل ملابسى وألحق بك يا أمى.

قالت الأم :

– بل إن أباك يريدك بملابس الخروج هذه لأن معه ضيوف أغراب.

اعتدلت ثم نظرت فى المرآة وعدلت من هيأتها وخرجت متوجسة تسير وراء أمها مطرقة الرأس تحاول أن تتخلص من شبح اللحظات القاتمة التى مرت بها رفعت رأسها بعناء حين قال لها أبوها :

– سلمى على ضيفنا ألا تعرفينه إنه زميلك بالمؤسسة ؟!!

وجدته يقف أمامها مبتسما فى اعتذار وقد مد إليها يده انتابتها رعدة قوية هزت جسدها ترددت فى أن تمسك بيده قال أبوها مشجعا :

لقد جاء طالبا الزواج منك.

قالت أمها فى قلق وقد لحظت يدها الملتصقة بفخذها لا تريد أن تصافحه.

– لن نضغط عليك يا ابنتىَ لك أن ترضى أو ترفضى.

قال هو لأمها فى رجاء :

– أرجو أن تعطينى فرصة قبل أن تلوحى بالرفض فلعلها ترضى.

سكتت هى للحظة ابتلعت لعابها استردت عافيتها بعد أن زقزق قلبها بالفرحة ثم قالت :

– بل الآن أرضى.

.. ومدت يدها لتتلقفها يده فى مودة ورحمة.

٣١- الطريق الملتهب !

أنا طالبة جامعية تحديدا فى السنة الثانية بكلية الطب.. فتاة فى هذه السن الذى تكثر فيه الأحلام والدراسة والحب والتطلع .. كما تتلاحق فيه الأمانى وتتزاحم ، وقد تتناقض، وقد تجتمع المتناقضات منها وقد يلغى بعضها البعض.. لا شىء يستقر فى هذه السن.. وإذا استقر شىء كرهناه، واعتبرناه، ركودا مثل الرسوب فى الامتحان عاما أو اثنين.. أو الإقامة فى مكان واحد لا يتغير..

الا حبى له وعلاقتى به ظلت قوية على حالها حتى تسلمت هذا الخطاب ذات صباح بتوقيع «فاعل خير». لقد ظللت أقرأ وأقرأ سطوره واحداً تلو الآخر.. وأعيد قراءة السطور غير مصدقة ما جاء بها حتى لعبت بى الذكرى ولعبت الدموع بعينى، فتوقفت عن القراءة، والقيت بالخطاب بعيدا عنى.. وعدت إلى دموعى من جديد أسألها، هل يخدعنى الحبيب لهذه الدرجة المهينة ؟!

وأردت التأكد بنفسى من الحقيقة التى جاءتنى فى الخطاب.. على الفور جففت دموعى وأدرت قرص الهاتف، وانتظرت حتى جاءنى صوته على الجانب الآخر.. كدت أنسى أمر المواجهة فمازال صوته كما هو يدل على أن صاحبه يرى الحياة أغنية مرحة، كلماتها حب .. ولحنها أمانى العواطف المتأججة؟!

ثم تراجعت واقنعت نفسى بعدم الاستسلام لإغراء حديثه هذه المرة.. وقلت أفاجئه بما عرفت أفضل.. ومن يدرى فربما كان «فاعل الخير» هذا كذابا أو مغرضا، أراد افساد لعلاقتنا لغرض ما فى نفسه.. بسرعة سألته كيف حال زوجتك وأولادك ؟!!

لا شك ألجمته المفاجأة.. فقد تلعثم. ثم لم يجد غير الاعتراف.. نعم هو متزوج وأب.. والبيت الذى كان وكرا لحبنا هو عش الزوجية.. هناك دعانى وتوالت دعواته وزياراتى بينما تضع زوجته طفلها الثانى فى بيت أسرتها بالبلد.

كانت صدمتى فيه أقوى من أى احتمال..

سألته بصوت تخنقه العبرات وكيف ابنى سعادتى علي تعاسة امرأة أخرى .. وأبنى بيتى على حطام بيتها؟!

هنا صفعنى بالمفاجأة الثانية والأشد.. فهو يحب زوجته ولا يفكر فى تطليقها.. أما حبه لى فيختلف تماما.. إذ له مذاق آخر وطعم مغاير.. ثم هدأ صوته ثانية . وقلب الاسطوانة على الوجه الآخر.. وراح يكرر عبارات الحب والغرام.. ويؤكد أن زواجه شىء، وحبه لى شيىء آخر.. الزواج يقتل الحب.. والعشق يحييه .. واستطاع أن ينتزع منى موعدا للقاء .. وذهبت !!

لا أدرى كيف انسقت وراء حبه من جديد.. كيف أغرقنى فيض حنان عينيه ؟!.. المهم أنى صدقته.. هكذا قالت عيناى وشفتاى .. صدقته لا عن اقتناع تام بما قال .. لكن كى لا أفقده.!!

ومرت أيام وعادت زوجته بأطفالها.. وبدأت أنا أفكر فى مستقبلى معه.. أفكر فى الانسحاب من حياته ثم تنوب مقاومتى حين يطاردنى ويدور بالساعات حول بيتى ليرانى.. والسؤال إلى متى تستمر هذه اللعبة السخيفة بيننا!!.. لقد ضاقت بى الدنيا بقدر ما رحبت.. أصبحت أنزوى فى غرفتى لا أكلم أحدا. أبحث عن مخرج لمشكلتى فلا أجد.

٤ ١- أحاديث ناعمـــة !

لا أدرى متى رأيتها أول مرة .. ولا أدرى متى اكتشفت أن هذا الشعور الذى نبت بيننا هو الحب.. دون قصد منى التقطتها عيناى من بين عشرات الفتيات حضرن عيد ميلاد أختى.. ودون ترتيب تلاقينا وتعارفنا.. وأصبحت عادتى أن أغسل ملامحها بدفء نظراتى.. أشد على يدها فتشع ضياء وحبا.. بالساعات أحادثها عبر الهاتف وأضع السماعة على أحلى نغمات يمكن أن يسمعها رجل يتوق للحب الصادق.. وإذا التقينا يتضاعف شوقى وهى تتكلم وأنا لا أسمعها.. فحواسى وقتها تكون مركزة تماما على كتفها الملامس لكتفى.. وعطر أنفاسها يملأ أنفى.. وهى تتكلم وتتكلم .. تحدثنى عن أشياء كثيرة تمر بحياتها.. والأحاديث تطول وتستغرق الساعات..

أصبحت أحاديها إدمانا ورئتاى تتنفسان من أنفاسها.. وأعصابي تنبض بنبضات أعصابها.. وقلبى يخفق بخفقات قلبها.

ثم فجأة تغيرت الأحوال وابتعد أحدنا عن الآخر .. لم تعد تقبل على الحديث معى أو تسعى للقائى.. وان جمعتنا الصدفة غبر الهاتف أو فى لقاء خاطف أجدها تتعجل نهايته وكأنما نفضت يديها من علاقتنا هكذا بلا مبرر أو سبب مقبول.

قلت لنفسى ربما ارتكبت خطأ فى حقها.. ومن غيرها يفسر لى الأمر ؟! حاولت الاتصال بها استوضحها المرة الأولى بادرت بإغلاق الخط حين تعرفت على صوتى وهى تتمتم النمرة غلط مفهوم!!

المرة الثانية جاءنى صوتها الذى أميزه بقلبى وحسى.. لكنها انكرت نفسها وأغلقت الهاتف دون تعليق.

١٥- عمل أســود

أنا امرأة صغيرة فاشلة فى حياتى .. وأكبر فاشلة لأننى سعيت لهذا الفشل بإرادتى ومحض اختيارى والآن لا أجد لدموعى سبيلا.

أنا امرأة تزوجت برجل يكبرنى بعشرين عاما سعيا وراء المال والأبهة فتحولت على يديه من صبية مدللة تحطم دميتها الجديدة ولا تدرى لماذا تبكى على فقدانها.. أقول تحولت إلى امرأة حطمت نفسها ولا تجد دموعا فى مآقيها لتبكيها..!!

لا ريب فى أن عددا من الشباب الذين مروا بحياتى قبله جاءوا يزرعون الود ويطلبون القرب لكنهم انزلقوا جميعا على صفحة أيامى فأحدهم - فى نظرى- لم يكن يملك ما يغرينى بقبوله.. وأعماقى كانت تتوق لمن يرفعنى معه لطبقة الأثرياء وذوى النفوذ، فأصير الهانم بدلا من حرم «فلان».. تتوق لمن يحقق أحلامى التى على الأرض.. وتلك المعلقة فوق الشجر..!!

ثم تحقق الحلم تقدم لى الرجل الثرى الذي يمتلك كل مظاهر الأبهة.. السيارة الفارهة والفيلا الأنيقة ورصيدا لا يقاوم فى البنوك يتضاعف مع كل صفقة ليضيف عدة أصفار على يمين الرقم الأصلى.. إلى جانب هذا الرصيد كانت هناك زوجة سابقة وشابان يقاربانى فى السن وتجربة فاشلة تنصل من مسئوليته فيها يوم، قبلته سمعت التعليق على السنة الجميع يصفه بالغدر.. فرغم عشرة السنين فقد ترك زوجته هذه بلا نفقة تحفظ كرامتها كأم أولاده.. وتركها لتعيش الآن فى أحد الأحياء الشعبية ودخل لا يكاد يكفيها..

وسمعتهم يقولون : يا له من زواج ليس فيه انسجام فى السن.. البنت مازالت تحبو لمرحلة الشباب.. أصغر منه بكثير.. وهو عجوز غنى يتقيأ عبارات الغزل..!!

سمعت كل هذا واقنعت نفسى أنه ما غدر بأم أولاده إلا لأنها فشلت فى

إسعاده.. أما أنا فرغم فارق السن سوف أعيش معه شهر عسل دائما.. أو هكذا توهمت ، فما إن مضت أيام حتى وجدتنى لا أجنى من وراء العسل سوى لونه الأسود دون طعمه !!

فسرعان ما كشف زوجى عن وجهه الآخر، وخلع القناع ليكشف عن رجل بلا مشاعر ولا قلب.. إنسان ضاق صدره فى كل المشاعر الإنسانية فطال لسانه واتسع ليكيل لى من الشتائم والإهانات ما لا يمكن أن تسمعه أذن أو ينطق به لسان.. بالطبع استغل ولداه الفرصة، وراحا يشعلان نيران الفتنة بيننا وزرع الغضب فى قلب أبيهما تجاهى، وفى غمرة هذا ظللت أنزف بصمت وكبرياء.. أذوى.. انطوى على جرحى بأناقة تمنعنى من إعلان هزيمتى وسط قوافل السعداء.

ثلاثا أعوام رضيت خلالها بنصيبى وأنا مدركة جيدا أن تمسكى بزوجى وبيتى مجرد عبث كزواجنا واستمرت الحياة وأنا أرفع أشرعة مراكبى بينما كنت متأكدة من أن الرياح قد ماتت ولا أثر لمناوراتى ولا عزاء إلا فى شلال ضياء يعربد فى عينى طفلة انجبتها منه.. طفلة حين اعتصرها بين أحضانى تغمر روحى بالكسينة والسلام والاستسلام.

لكن إلى متى كنت أتحمل، وزوجى لم يعد يكتفى بالإهانات الشفهية قسوته تجاوزت هذه الحدود، وامتدت يده كلغة أخرى للتفاهم.. وأخيرا زاد الطين بلة وذات مساء تهجم على كعادته ، ولم أجد غير جدران غرفتى تحمينى إلى أن بزغ الصباح وتركت الفيلا إلى عملى عازمة على ألا أعود إليه.. لكنه سبقنى إلى باب العمل وما إن رآنى انصرف حتى نفذ ما فشل فيه بالأمس.. وكانت فضيحتى بين الزملاء بجلاجل !!

ثم تركنى وفى أعماقى قصة زواج محنطة، أبغى لو أحسن دفنها لكنى أجهل كيف.. هذا هو سؤالى ماذا أفعل وهل من حقى طلب الطلاق دون متاعب.

١٦- سيمفونية العمـر !

أخيرا عرفت سر عذابى.. عرفت لماذا أقضى أيامى شاردة الذهن موجوعة القلب.. أبدوا أحيانا وكأنى فقدت حواسى بينما حل المشكلة ليس بيدى..

باختصار أنا فتاة فى السابعة عشرة من عمرى طالبة بالثانوية العامة، وبعد شهور قليلة سوف ألتحق بالجامعة.. مع ذلك لم يهف قلبى لقصة حب أخوضها وأعيش تفاصيلها كالبنات فى مثل سنى.. دائما أتخذ دور المستمع أنصت لزميلاتى وهن يحكين قصص الحب والدموع تقف فى حلقى .. وحين تتجه الأنظار نحوى لا أجد ما أقوله ولا أرد به غير ابتسامة بلهاء أضعها على شفتى تثير سخريتهن منى وإحداهن لا تدرى هل أنا ساذجة لهذا القدر الذى لا أدرك معه معنى الحب واسعى إليه كأى فتاة طبيعية.. أم هن أمام فتاة تلعب بالبيضة والحجر وقد تخفى وراء مظهرها البرىء نزوات كثيرة تمضى سراعا كسحابات صيف.

وبدأت أحس أنى شاذة وسط الأسوياء.. وكان لابد من تغيير سلوكياتى كى أمح من الأذهان صورة الفتاة الشاذة المعقدة لكن كيف؟

هدانى تفكيرى لأبحث عن قصة حب أعيشها بخيالى، واخترت جارنا بطلا لقصتى.. ونسجت حولنا قصصا ومواقف وخناقات وهجر وصلح وتفاصيل استقى معظمها من الروايات والمسلسلات أدخرها من الليل لأرويها وكأنها الحقيقة الوحيدة التى أعيشها مجرد صور على جدار الوهم .. وهنا تذكرت نفسى.. وثرت عليها.. فأنا أرفض أن أكون غير ذاتى ولا أتخلى أبدا عن حقيقتى.. وهكذا عدت لصمتى من جديد أستمع إلى قصص الحب ولا أشارك فيها.. مع ذلك مات الانسجام داخلى وبقى الصراع قائما...

١٧- رحمة الأقدار !

جلست مطرقة أفكر.. فشغلت عما حولى بما تزاحم فى رأسى من مشاهد.. وعاوننى على الاسترسال فى تفكيرى وجودى فى البيت وحدى.. وبقيت هكذا سابحة فى بحور الخيال، وقد انتشرت فى صدرى أحاسيس حزينة، وكان قلبى يتجاوب مع أفكارى فينقبض وينزف أسى ومرارة..

وكانت ليلة لم أر لها مثيلا، سوف تحفر جذورها المؤلمة فى أعماقى مدى الحياة، رغم أنها كانت ليلة اعلان خطبتى، علي طبيب شاب هو بكافة المعايير أمنية وحلم كل فتاة .. لكنى لا أحبه.. وفى تلك اللحظة بالذات بينما كنت أتأمل لحظات مراسم الحفل بدا لى أن ليس هناك مكان فى نفسى إلا أفكار رفضى لهذا الرجل.. وهذا الاحساس طفح على ملامحى وهو يحيط أصبعى بدبلته.. لم تكن ابتسامتى فى مكانها المعتاد فوق شفتى، ولا نظرتى ولا قلبى فى مكانهما.. وأشياء أخرى كثيرة كانت ترتعش داخلى، وكأننى آلة انفكت صواميلها.. وخفت.. خفت أن يكون فى صدرى ميكروفون يذيع على الناس ما أخفيه.

لكن مرت الليلة بسلام.. ووجدتنى وحيدة إلا من سؤال : لماذا فرضت أمى قريبها على حياتى، وصمت أذنيها عن سماعى ؟!

ربما كان عريسا مناسباً لسواى.. أما أنا، فأجدنى بعيدة تماماً عن إهتماماته التى تنحصر فقط فى مرضاه وقراءاته ومؤتمراته. والمشكلة، إذا كنت على هامش فكره الآن اين يكون مكانى غدا ؟!!

عرضت على أمى مخاوفى ، وطالبتها متوسلة أن تصرف النظر عن هذا العريس، خاصة وقلبى مشغول بشاب آخر، أحسه حاضرى ومستقبلى.. والوحيد الذى يساعدنى على احتمال ما يمر بنا من عقبات وينتظر مثلى أن يأتى يوم يجمعنا معا .. ترى هل ترحمنا الأقدار وتحقق الأمل؟!!

٨ ١- أناقـة .. الحجاب !

بلا مقدمات أو رتوش ألون بها حروفى أروى قصتى .. فحياتى الزوجية مهددة بكارثة.. مهددة بخراب البيت وطلاقى..

بعد هدوء دام خمس سنوات استحال كل شيء إلى ريح عاصفة.. برق ورعد.. زمجرة وزئير، وظلام نفسى دامس حالك.. وكأنما ثار الكون ثورة عارمة.. ففتح زوجى أبواب فمة بسيل من الهجمات سريعة الطلقات عندما تصبح حياة المرأة الزوجية مهددة بالانهيار، فإنها تفقد قدرتها -تماما- على التعبير.. وربما خانها اللسان فتعجز عن تصوير مشكلتها إلا من خلال الورقة وألقلم، وكلمات متناثرة من هنا.. وهناك..

لن تجدوا فى مشكلتى هذه قصة حب أفسدت حياتى .. ولا أنا امرأة طعنها زوجها بالخيانة، فلا حدث شيء من هذا أو ذاك.. إنما تتلخص مشكلتى فى واحدة

من مواقف تختلف فيها الآراء.. الزوجة تريد شيئا وزوجها يرفضه..!

ستقولون على المرأة اطاعة زوجها ولو على حساب أحد حقوقها.. أو -على الأقل - حتى تمر العاصفة وتنجح فى اقتناعه بوجهة نظرها.. وأنا مؤمنة تماما بهذا المبدأ كجزء من تكوينى الأخلاقى والدينى بل أنى أتمادى أحيانا فى طاعته.. إلا موقفا واحداً أصر عليه وأرفض الرضوخ فيه لتعنت زوجى فلا مرضاة لمخلوق أيا كان فى معصية الخالق أليس كذلك؟!!

والحكاية أننى قررت أن اتحجب قبل شهور، بعد رؤيا لاحت لى فيما بين النوم واليقظة تحثنى على ارتداء الحجاب.. وفى الصباح وجدتنى زاهدة فى ابراز مفاتنى إلا لزوجى.. ولأنى حريصة على إرضائه كاشفته برغبتى غير متوقعة أن تقوم الدنيا لقرارى، ولا يقعدها زوجى إلى الأن.

فقد ثارت ثائرته حتى ارتفع ضغطه، ولأهدىء من ثورته آثرت تأجيل رغبتى إلى حين .. ورحت أقنعه بأن الحجاب أحد أسس الإسلام.. فهو يقى المرأة شر الفتنة. ويغض عنها انظار الرجال، ويساعد على ستر ما قد يثير فى النفوس الضعيفة كوامن الشهوات.. واستغرق اقناعى له شهرا كاملا.. ثم جاءت موافقته كالحكم بالإفراج عن متهم بنصف المدة وكان محكوما عليه بالسجن المؤبد!

وعلى الفور ارتديت الحجاب قبل أن يتراجع عن موافقته.. لكن لم تمض أيام قلائل حتى عادت ثورة زوجى أكثر عنفا.. وهذه المرة خرجت ثورته عن حيز التوبيخ بالكلام إلى مقاطعتى ورفض الخروج معى إلى الأماكن العامة والظهور بى على هذه الصورة.. كما رفض مصاحبتى فى زياراتى للأهل والأصدقاء. ثم أخذ يلوى يدى لخلع الحجاب بالحديث عن سخرية الأهل والأصحاب من ملابسى الأمر الذى لم يعد يقبله على كرامته.!!

تحملت كثيرا .. وصبرت على البلاء أكثر لكن إلى متى يستمر صبر أيوب ولأي مصير يقودنى؟! أشعر أن علاقتى بزوجى أصابتها الفتور ، وأتمنى لو أرضيه – لكن كيف ؟!.. هل أخلع الحجاب وأصير سافرة على شاكلة زوجات أصدقائه المتبرجات ؟! مستحيل .. فقد اشتريت الآخرة بالدنيا، واخترت طريق إرضاء الله.

وأخيرا الجأت لأحد المتفقهين فى الدين أسأله عن صواب موقفى.. فجاءنى تأييده تأكيدا لسلامة موقفى.

كنت -إذن- على صواب خاصة وأنى لم أقصر فى أحد حقوقه رغم معاناتى.. ورغم قسوته مازلت أناقشه بلطف وأتغاضى عن اهاناته بالصفح الجميل لأنى أحبه وأحرص على حياتى معه، ليس من أجل طفلى بل من أجله هو. لكنى – أبدا– لن أخلع الحجاب.. فكيف اتصرف .؟!

١٩- دمــوع .. الجميلات

لم يكن زوجى -أبداً- هذا الإنسان .. كان دائماً زوجاً مثالياً وأباً رائعاً.. وكان بيتنا مثاليا كزوجى.. نظيفاً دائماً.. لم ترتفع فيه كلمة نابية، ولا دوى فيه صراح، ولا مر بين جدرانه حادث يمس معنى الفضيلة والعفة..

فجأة ومنذ أربع سنوات فقط تغير زوجى تماماً حين بلغ سن الخمسين.. وبدأ يأتى بتصرفات صبيانية نالت من هيبتة وسمعته كصاحب لمحل تجارى كبير.. والهمسات صارت صراخاً صم أذنى.. فى البداية لم أصدق الشائعات، ثم قررت التأكد بنفسى.

تخفيت تحت النقاب وقمت بزيارة للمحل.. ولهولى وجدته استبدل طاقم العاملات القديم بغيره.. بنات كلهن جميلات ، وهو يلاحقهن بمعاكساته الشاذة.. عندئذ فقط صدقت دموع إحداهن حين جاءتنى تشكو.. واستحلفتنى ألا أبوح له باسمها كى لا يستغنى عن خدماتها كما يفعل مع أخريات.. وجميعهن فى حاجة للعمل!!

كتمت حزنى بين الضلوع طويلا، ثم لم أعد قادرة على الكتمان.. كاشفته بما سمعت ورأيت .. حاولت أن أنصحه كثيراً، فنزع برقع الحياء ولم يعد يعبأ بنصحى أو مشاعرى.. وأنا الآن حزينة على نفسى .. وعلى أولادنا الكبار الذين يشغلون مناصب مرموقة.. فماذا أفعل كى أعيده لصوابه ؟!!

٢٠- الأحلام .. تتحقق أحيانا !

أنفق الأب سنوات عمره على حلم أن يرى ابنه مهندسا .. وعمل جاهداً على زراعة هذا الحلم الجميل فى عقل وقلب الصغير .. وحيده «محمد» ولكى يرى الحلم يتحقق ويصير واقعاً يدخر المال أو الجهد .. اقتطع من قوته وقوت بناته الأربع ما مكن وحيده من الالتحاق بكلية الهندسة.

ولم يكن محمد ببعيد عن رغبة أبيه رغم صغر سنه .. فقد أحس أنه أمل والده وأن عليه تحقيق أمنية هذا الأب المتفانى مهما كان الثمن .. اجتهد طوال سنوات دراسته حتى حصل على الثانوية العامة ومجموع درجاته أهله للالتحاق بكلية الهندسة .. وعاش حياته فى غرفة ضيقة ببيت عمته فى عابدين .. وبين أقرانه فى الجامعة وليس له أية تطلعات سوى تحقيق أمنية أبيه، رغم علمه بمدي فقر هذا الأب وحاجته لكل قرش يبعث له به كما كان يعلم مدى الحرمان الذى تعانيه الأسرة خاصة شقيقاته من أجل توفير ما يحتاجه طوال مسيرة تعليمه الجامعى.

قال محمد لنفسه هذا العطاء ، بلا حدود من والده وأسرته لابد وأن يقابل بما يستحقه من جهد وجهاد في التحصيل .. وهكذا وفي بالوعد حتى حقق الأمل لوالده وصار مهندسا متخصصا فى القوى الكهربية دفعة ٢٠٠٠ ولكن ؟!!

رغم اعفائه من التجنيد باعتباره وحيد والديه ... ورغم تلك الآمال والطموحات التى ملأت جوانح الأب والابن معا .. إلا أن الباشمهندس، الصغير وجد نفسه فجأة كمن غش والده وأطعمه السراب .. لعب بعواطفه حتى نال منه كل شىء .. ثم لا شىء ..!!

فهو كأى شاب تخرج فى إحدى كليات القمة كان يظن أن مشوار العناء قد انتهى .. وأنه لن يحتاج أكثر من مد يده ليقطف ثمار جهده شهياً .. فحمل

شهادة بكالوريوس.. وطاف به على أكثر من شركة لعل وعسى.. لكنه لم يوفق في إحداها.. وعندما أحس الشاب أنه أصبح من جديد عبئا على والده المكدود.. وأن الأمل الذى تحقق يكاد يتبدد قرر أن يغامر بمستقبله فحصل على آخر قرش فى جيب والده.. وما استدانه الأب بقدر ما استطاع ليسافر الشاب بشهادته ويجرب حظه فى ليبيا.. عمل هناك لفترة تمكن خلالها من تسديد ديون والده.. لكن لم يكن العمل يتفق ومؤهلات الشاب ولا الراتب كان مجزيا وما قبله الا مضطرا ثم هناك الحتين. الحنين إلى مصر.. للأسرة والأخوات.. للإحساس بالأمان والكرامة.. عندئذ عجز عن البقاء فحمل حوائجه وقفل راجعا إلى الوطن يحدوه الأمل فى الحصول على عمل يمكنه من رد الجميل لوالده .. لأسرته .. لأمه العظيمة مصر.

وللمرة الثانية حمل بكالوريوس وطاف على الشركات ودخل المسابقات وتعرض لأقسى اختبارات .. ولكن .. رغم فوزه فى آخر امتحان أداه الا السيد مدير التخطيط والمتابعة بالشركة رفض تعيينه لأنه تجرأ وتقدم لطلب الوظيفة دون مساندة «واسطة» على مستوى تعزز مطلبه.. ولأن الموقف لم يكن جديدا عليه ولن يكون الأخير.. فقد انتابه إحساس باليأس والقنوط من حياته كلها.. فليس من المعقول أن يظل هكذا عالة على والده وأخواته لا لشىء، الا أنه إنسان مكافح من بيئة متواضعة واسطتها الوحيدة الجهد والعرق.

٢١ - قرارات .. الست الوالدة

ظهرت نتيجة دبلوم الزراعة وبدأ قلب الرجل المسن يخفق بشدة والعرق يتصبب على وجهه بارداً كالثلج.. قدماه تتقدمان خطوة.. ووتراجعان خطوات.. فالأنباء التى يحملها لابنه لا تسر القلب ولا ترضى الخاطر.. بل ستقضى على ما تبقى له من معنويات منهارة.

صراع عنيف دار فى نفس الرجل قرأه الفتى فى عينيه الدامعتين.. لقد رسب فى الامتحان ونأى عنه الحصول على الدبلوم عاما آخر.. والخسارة لن تقف عند هذا الحد فحسب فخطيبته بدورها سوف تعانده كما فعل القدر وتفسخ الخطبة.. على الأقل بضغط من أهلها.

وحدث ما توقعه الفتى ورفضت مجرد الخوض فى أمر هذا الزواج الا بعد حصوله على الدبلوم إذا لم يظهر لها عريس آخر وتتزوج قبل نهاية العام !! يومها، خرجت والدته وكله تصميم على أن تخطب له ست ستها على حد قولها.. وبهذا التصرف قطعت سبل التواصل بينهما.. وسافرت الفتاة إلى القاهرة.. وهنا يتساءل الشاب ترى هل تعلقت فتاتى بشاب آخر من أبناء المدينة !! أم تنتظر حصوله على الدبلوم العام القادم ويتقدم لها من جديد؟!

٢ ٢- المشوار .. الصعب !

كنت قد نمت ليلتى مسهدة فما يكاد النوم يمس أجفانى وما تكاد عيناى تغمضان حتى أهب من نومى.. واتطلع إلى الأفق من خلال النافذة القريبة من فراشى.. كنت أرصد طلوع النهار.. أحسست رغبة فى الكلام.

كنت أود أن أحدث أيا كان ولو على الورق.. طوال عمرى كنت أنفض همومى على الورق، ولا أعرى أعماقى وأحرج كرامتى أمام الآخرين كى لا يسىء أحدهم فهمى ويتصورونى أتاجر بمشكلتى ، فتمتد يده لحافظته محاولا مساعدتى بماتيسر كما فعل البعض ليضاعف من مأساتى.. أنا .. لست متسولا، ولا عاشقا كما أننى لست شابا يبحث عما يسليه.. إنما أنا متواضع الظروف والإمكانيات فى آخر شهور دراستى بكلية طب الأزهر.. لا يهم أننى وصلت هذه الدرجة من التعليم .. المهم كيف وصلت وكيف يتسنى لى استكمال هذا المشوار الصعب، بينما يرافقنى صديق لدود إسمه سوء الحظ.. أو النحس المقيم ؟!!

أول معرفتى بهذا الرفيق يوم مات أبى ... كنت – وقتئذ- طالبا بالمرحلة الاعدادية ... حدث هذا منذ ثلاثة عشر عاما ... رقم نحس هو الآخر.. لكن لا بأس... منذ وفاة أبى وأنا أندفع مع عجلة الأيام القاسية الطاحنة ... أركبها حينا وتطرحنى أحيانا حتى لأكاد أتردى فى الحفر العميقة ... لولا أنى تخطيت هذا الخطر ومارست كل عمل ... وأى عمل قد يطوف ببالك لأحقق أمنيتى وأصير طبيباً. ويشار إليه .. لن تصدقى أننى اشتغلت مع عمال البناء ... عمال القمامة.. جرسونا فى المطاعم.. وعاملا بمصنع جوارب تركته مؤخرا عندما اكتشفت أن استمرار عملى فيه سيفقدنى نفسى.. كإنسان ؟!

واشتريت نفسى.... فضلت أن أعانى أنا وأمى ورحت أبحث عن عمل جديد لأعول أسرتى الصغيرة.. أى عمل ليلى يساعدنى على استكمال دراستى.. عمل يترك لى وقتا للمذاكرة والتدريس العملى بالمستشفى عمل يحفظ لى كرامتى ومستقبلى، بعدما وصل بى الأمر تقبل الهوان ، وبيع نفسى حتى أهبها..!!

٢٣- عقدة .. نقص !

مشكلتى أننى ولدت فقيرا، سليل أسرة متواضعة للغاية.. قطعا سمعت عن مثل هذه الأسرة الفقيرة سيئة الحظ ... أبى فلاح وهو يعمل فى الغيط من طلعة الشمس لوقت الغروب وجهه لفحته الشمس فصار يقطر بؤسا .. كذلك وجه أمى لفحته حرارة الفرن وجسدها الذى انحنى من خدمة العيال..

كذلك لم تر بساطة البيوت التى بنيت فى قريتى من الطين والطوب النيء دون اقفال.. فليس فيها مايسرق أو يخشى عليه الضياع.. وإلى جوارها المقابر فى مدخل القرية والتى تكاد تتشابه مع البيوت التى يسكنها الأحياء عبوسا واستكانة.. والناس تحمل ملامحهم ظلال هم دفين .

فى هذا الجو نشأت .. وكثيرا ما كنت أعود آخر الليل من الغيط وقد سبقه يوم دراسى مهدود القوى لأسهر حتى الفجر أذاكر دروسى .. ومن حين لآخر انظر إلى نفسى فى المرآة وآخذ فى تأنيب الشخص الذى أراه على صفحتها لأتشاجر معه وأسأله إلى متى أتحمل هذا العذاب وإلى متى أستطيع التوفيق بين دراستى ومساعدة والدى والمذاكرة آخر اليوم.

ويطول الصراع بيننا لتشقق فى النهاية على أن أزيل وصمة الفقر عن حياتى فأنا الابن الوحيد لهذا الأب الكادح وبقية أخوتى بنات أنا الأمل فى مساعدة أسرتى -بعد التخرج- على الخروج من دائرة الفقر.. ثم استلقى على فراشى بعدما أصل إلى القرار نفسه.. أنه لا معركة أخوضها غير مزيد من العمل إلى جانب النجاح والتفوق فى دراستى .. وبالفعل مضت السنين العجاف ونجحت بتفوق وعينت معيدا بالجامعة.. كذلك أعفيت من الخدمة العسكرية لأنى ابن وحيد.. باختصار ابتسم لى الحظ بعد عبوس طويل.. ولأسرتى أيضا وأبى بالذات .. والقرية كلها بدأت تناديه «أبو الدكتور» .

هذا طبعا غير عدة آلاف ادخرتها من كدى وتعبى.

مؤهلات أخفيت الجانب المظلم فيها والذى يخص مستوى أسرتى الاجتماعى -حين وقعت فى حب زميلتى وكنا أيامها طلبة فى نهائى هندسة.. بعد التخرج عرضت عليها الزواج .. ووافقت .. بل وقدمتنى على الفور لأسرتها لألقى ترحيبا من الكل لم أتوقعه.. ثم دعتنى أمها لحديث مغلق للاتفاق على تفاصيل الزواج وما يمكننى تقديمه من عدمه لتتفاهم هى على التفاصيل مع الأب.. ولا تعرضنى لأى حرج..!!

من هنا بدأت مشكلتى.

فقد رأيت أسرتها وسألت عن الجذور.. وهالنى ما سمعت .. فوالداها يشغلان مناصب رفيعة.. وأخوتها بين طبيب ومهندس وباقى عائلتها، كلهم من ذوى الأسماء اللامعة والحيثية المرموقة.. وفكرت أين أنا من عائلة كهذه ؟!!. وكيف أقدم لهم أسرتى ؟!.. وماذا لو رفض طلبى بسببهم هل تفضحنى وسط زملائى وطلبتى فى الكلية.

قبل أن أتعرض لموقف كهذا حاولت مكاشفتها بوضعى الاجتماعى وأنبهها للفارق الكبير بيننا لأحلها من وعدها لى.. وعجزت .. خشيت فقدانها.. وفى النهاية فضلت الإنسحاب بهدوء دون أبداء أسباب.. فما كان منها إلا أن أعلنت خطبتها على مجرد باحث بالكلية ، وهى تشيع أننى أتسلى ببنات الناس تحت شعار الزواج؟!

والآن - لا أعرف كيف أكاشفها بحقيقة مشاعرى ولماذا تخليت عنها فأنا مازلت أحبها .. ولا أتصورها زوجة لغيرى .. فهل أترك الجامعة كلها بحثا عن النسيان.؟!!

٢٤- موهبة .. الغفران !

برغمى طرحت عليه سؤالا ظل يتردد على لسانى طويلا، وفضلت كتمانه كى لا أفقد الحبيب إلى الأبد.. كتمان كاد يسلمنى للانفجار، فانطلق مثل قذيفة برغمى: هل ما زلنا حقيقة يحب كل منا الآخر، كما كان حالنا قبل أن يموت أبى بسببك؟!!

كنت صادقة فى طرحى السؤال.. فالهوة بيننا أخذت فى الاتساع ولم يعد أحدنا يجد فى الآخر راحته التى يأوى إليها.. وأصبحت كلما وزنت شعورى بهذا القياس أحس بالحزن على حب بات ينذر بنهاية مؤلمة موجعة لكلينا.. حب لم يعد زورقا يحمل لى شخصيا شحنة مشاعر سابقة بعدما هبت الزوابع والأنواء ليشعر كل منا أنه يمخر عباب الحياة فى العواصف بشحنة ألم عديدة الثقل..؟!

وافترقنا.. ولم يسعدنى الفراق -على العكس- أنا ضائعة ، أطوى عذابات الدنيا بين الضلوع على ضياع الاثنين.. أبى والحبيب ولا أستطيع استعادة أحدهما، فالأول مات ودمه فى رقبة الثانى.. انه لم يقتله عمدا مع سبق الاصرار والترصد.. وإنما تربص بهما القدر على طريق مصر - اسكندرية الصحراوى.. كان والدى ينهى بعض أعماله فى الجمرك.. وكان الحبيب يصاحبه باعتباره ممثلا عن والده شريك أبى فى أعماله الحرة.. ورغم تفضيل أبى القطار فى سفراته لولا اصرار فتاى على العودة معا بسيارته.

وعلى الطريق وقع الحادث وتوفى أبى على الفور، ولم يصب مرافقه بخدش، وجاء بنفسه يحمل الخبر المشئوم ، كانت صدمتى فى الاثنين أقوى من قدرتى على التحمل أو مواجهة أمى وأخوتى، والكل يتهمه بالرعونة والتقصير.. ولولا أنه اثنى والدى على السفر بالقطار ما كان روى الرمال وأسفلت الطريق بدمه..

٥ ٢- الأجراس .. السوداء !

وأنا أكتب لك عن مشكلتى لم أكن أدرى لماذا كان الليل باردا تلك الليلة، وصوت الريح فيه شيء مخيف يرعبنى على غير العادة.. والأحزان تحتل قلبى.. والشقاء يجثم على صدرى لينذر بمقدم مواكب نحسى التى تنوح فى فجر حياتى بأجراسها السوداء.

وتواردت على الذكريات تباعا حتى أحسست شيئا فشيئا اننى أعيشها مجددا .. فاتذكر كم كنت فى حاجة للحنان.. أى حنان.. ومن أى مخلوق.. ثم رأيتها وتعرفت عليها وكنت ما أزال طالبا بالمرحلة الثانوية.. ونسجنا معا قصة حب طاهر لم يفكر أحدنا أن يلوثه برغبة مادية.

وكأنما أبى القدر أن يظل حبنا نظيفا طاهرا. فذات يوم مشئوم تدخل الشيطان ليحول هذا اللقاء برغمنا إلى علاقة رذيلة لم نردها .. وإنما دفعتنا لها فورة أجسادنا.. والعلاقة اثمرت جنينا يتحرك الآن فى أحشائها منذ خمسة أشهر.. وكل يوم يمضى ينذر باعلان علاقتنا الحرام رغم أنها مازالت عذراء..

إنها كارثة بحق تحاول فتاتى الخروج منها بالانتحار لتتخلص من عارها .. فأنا كطالب جامعى لا تسمح إمكانياتى بزواج.. فى نفس الوقت لا يمكننى التخلى عنها وكلانا شريك فى المحنة.. وهذا ما يدفعنى للتفكير بدورى فى الانتحار أو الهروب بها إلى المدينة الواسعة نتوه فيها .. ثم أعود إلى نفسى وأفكر فى حالى لو هربت.. بالقطع سوف أخسر أهلى ودراستى.. اتصرف.

٦ ٢- ثلاثة مراكب وقصة حب

العشق تجربتى وكل زادى ، جحيمى وجنتى، أرضى وسمائى، جنونى المرتدى لقناع العقل، جوهرى المتحدى لكل شكل.

العشق سؤالى الذي لا يرضى أبداً بإجابة واحدة، لذلك أندفع كعاصفة من شوق إلى أحضان من أحب، ليبقى فى الخيال ما يحدث أثناء العناق، حيث نتحول إلى موجتين، موجة تلين وأخرى تتداخل معها بحدة، وتذيب ثلوج الإحساس بالوحدة ونمتلك سكينة التكامل فى قوقعة هاربة إلى أنهار الجنة.

وواقعى يؤكد لى أنى قليلا ما كنت أخنق قلبى بأصابع أيامى، فلا أعطيه فرصة للتنفس بعمق، لذلك كنت أبيح لنفسى السفر دائما إلى عيون من أحب، أو من أفتش تحت بشرتها عن صلة ما بمن أحب، وشاءت الظروف ألا أتنفس بعمق إلا بالسفر إما إلى من أحب أو إلى امرأة تلعب دور الظل لمن أحببت أو إلى بلد أبحث فيه عن عناق الحب.

والسفر على الأرض يبدأ عندى .. كما بدأ عند الإنسان الأول- عبر البحر أو النهر، ثم أخيرا جاءت الطائرة.

وجواز سفرى لا يدخل أى مدينة إلا من أجل الحب وقد عرفت السفر على أمواج البحر الأحمر والنيل والبحر الأبيض، ثم سبحت فى أجواء المحيط الأطلنطى إلى الولايات المتحدة وكندا، وتقلبت أيامى لأخطو فوق المحيط الهندى لأصل إلى الكويت وأبو ظبى ثم إلى اليابان ، ثم استرحت سنوات إلى زيارة أسبانيا وايطاليا ومعظم قرى القطر المصرى التى زرتها. وقد حدث ذلك كله من أجل الحب فكرة وشوقا وتحقيقا لمعنى أنى أعيش.

كان السفر إلى الحب عبر المركب فى عام ١٩٦٣. اخترقت البحر المتوسط على سطح الباخرة سوريا، لتحملنى من الاسكندرية ثم إلى ميناء بريه فى

اليونان إلى فينسيا وايطاليا لأركب القطار الليلى لأصل إلى باريس فى الصباح، ولم التفت وأنا فى البحر لعناق السماء مع الموج، ولا لتدافع الموج على ضفتى السفينة، ولا إلى العاصفة التى قلبت معدتى حين دخلت المركب وسط دوامة جعلتها تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار، ولا إلى لحظة مرور السفينة فى مضيق كورنيثيا الضيق الذى يمر بين جبلين، وكان القبطان أنيس أنسى هو الذى يوجه السفينة، أما المرشد اليونانى فقد وقف يشرب كأس نبيذ إلى جانب القبطان، وهو يقول له : أنت تفهم هذا الممر المائى أكثر منى.

كان أنيس أنسى رجلا يعشق البحر بجنون ويحتاج إلى الأرض بجنون أيضا، يحفظ خريطة البحر المتوسط وكأنه يسير فى شوارع مدينة يحفظ ملامحها، وفى المساء يمكنك أن ترى غلالة من دموع الأشواق لقضاء وقت من السمر مع أسرته التى تعيش فى الاسكندرية ومن أجله قرأت عن حياة البحارة لأفهم سر بعثرة أيامهم بين الأمواج وعدم قدرتهم على البقاء على الأرض.

وكان من الطبيعى أن تخرج لى ذاكرتى من أيامى القديمة - وأنا على سطح الباخرة سوريا- ما حدث فى مركب نيلى صغير أوقفته أنا وحبيبتى، فى أول زيارة لنا للقناطر الخيرية.

ولعل وقوف الذاكرة عند تجربة المركب النيلى فى القناطر الخيرية، كان وسيلة للهرب من دوامات تأرجح المركب سوريا بين عواصف البحر الأبيض.

أذكر اليوم جيدا كان التاسع والعشرين من ديسمبر من عام ١٩٥٩. كانت حبيبتى قد سافرت من الاسكندرية إلى القاهرة لتؤدى امتحان بعثة دراسة الماجستير، والتى قيل لها إنها مقدمة لسفرها للدراسة المنتظمة فى كلية الآداب فى باريس.

ولا أعرف من الذى أوحى لنا أن ننطلق من أسر القاهرة ونركب أتوبيسا

إلى القناطر الخيرية، ولا يعرف أحدنا كيف أشرنا معا إلى المراكبى العجوز الذى طلب منا ثلاثة جنيهات ، ليجعل من المركب بيتا صغيرا لنا.

ولا أدرى كيف تحول مركب شراعى إلى بيت عناق لا يعرف أحدنا كيف بدا ولا كيف انتهى، ولكنى مازلت أذكر أن المراكبى العجوز قال لنا : قبل أن أترككما فى مركبى أريد أن يحدث ما بينكما على سنة الله ورسوله، ولم ينظر إلى وجهى أو وجهها، ولكنه نادي شابا يقف على الشاطئ وقال له : سنزوجهما الآن ونكون الشاهدين الزواج إيجاب وقبول وشهود يا أولاد.

وتبع ذلك بالقسم بالله أنه لم يفعل مثل هذا الأمر من قبل، لكنه يشعر بأننا أولاد حلال وما بيننا من حب لابد أن تباركه السماء، وأمرنى أن أقول وراءه : أريد أن أتزوجك علي سنة الله ورسوله، وأمرها أن تقول : قبلت الزواج منك على سنة الله ورسوله. وقال العجوز صاحب القارب: وأنا أشهد على الزواج .. وقال مساعده : وأنا أشهد على الزواج. وقبل أن يغادر العجوز قاربه قال لى : يبدو أنكما أبناء أناس طيبين هى طيبة وأنت طيب ، فلا داعى ألا تكون علاقتكما بها مجرد لعب عيال.

ولا أدرى كيف استطاعت شمس ذلك النهار وسط النيل أن تكون خيوط حنان شتوى، ولا أدرى كيف بدأ الحب يعزف لحنه السماوى، ولا أدرى كيف امتزجنا لنكون كائننا واحدا، ولا أعرف كيف يمكن أن أفسر ما حدث.

كان الغرق فى استدعاء تفاصيل ما حدث فى المركب النيلى -الذى تحول إلى قارب للحب- هو الذى جعل من رحلتى على الباخرة سوريا مقبولة رغم الإنهاك الشديد.

وما أن وصلنا إلى ميناء بيريه حتى قال القبطان أنيس أنسى: لا أجد مكانا لى على رصيف الميناء، من يرغب فى زيارة ميناء بيريه أو أثينا: عليه أن

ينزل على سلم الحبال ليركب قاربا إلى رصيف الميناء وحين عودتكم سيكون المركب قد رسا على الرصيف.

وكان نزولى إلى قارب صغير من المركب "سوريا" فى بيريه سببا فى أن تسافر الذاكرة إلى باخرة أخرى ركبتها مع أهلى فى عام ١٩٤٨، لنسافر إلى الحج .، وكان الوصول إلى ميناء جدة يقتضى أن ننزل على سلم غير ثابت لنهبط من المركب إلى قارب ينتظر إلى جانبها. وظهر خوفى القديم الذي عانيت منه أثناء النزول وأنا طفل إلى القارب الملتصق بالسفينة فى ميناء جدة.

خفت يومها أن تعاقبنى السماء لأنى قمت بحماقة متعمدة أثناء الرحلة إلى جدة، حيث وقفت عامدا متعمدا على السرير العلوى فى الغرفة التى أنام فيها أنا وأمى وشقيقتى، ومعنا سيدة رافضة لوجودى بالرحلة، وأعلنت أنها تكره صحبة الأطفال. لكن أمى أخبرتها أنها تصحبنى إلى الحج من أجل أن يهدينا الله لأنى فى نظرها كثير الشغب، وفى نظر نفسى كنت مجرد طفل خائف يدافع عن نفسه بشراسة نهائية.

واستيقظت فى خيالى تفاصيل صغيرة كانت وراء إصرار أمى على أن أصحبها مع أبى إلى الحج كنت طفلا أدرس فى روضة أبناء الأشراف التى أسستها نبوية موسى -رائدة التعليم فى ذلك الزمن القديم- وأظن أنها كانت أنسة: لأنى لا أثق بأن رجلا كان يمكن أن يتزوجها، لأنها تشبه الممثل توفيق الدقن، وفى نفس طوله ونفس طريقة نطقه للكلام.

ولم تقبل منى ما شاهدته بأم عيونى أثناء الفسحة الكبيرة التى تأخذها من الحصص فى الواحدة ظهرا . فقد كانت تتجول فى ردهات المدرسة وبين الفصول، لعلها تجد تلميذا لم ينزل إلى المطعم لتناول الغداء الكريه المكون من طبق الفول المطبوخ بالطماطم.. وطبق الأرز المعجن، ورأت نبوية موسى ما لم

تتوقعه، شاهدت طفلا عاريا يحتضن طفلة عارية كنت أنا هذا الطفل، وكانت سوزى ابنة طبيب الأسرة هى الطفلة.

كانت سوزى قد اتفقت معى على أن نلعب لعبة الطبيب والمريضة وأن نضيف إليها ما شهدناه لأول مرة على شاشة السينما من أفلام رعاة البقر الأمريكية الكاوبوى، حيث يقبل البطل البطلة، وهنا صرخت نبوية موسى وأصرت على أن أحمل ملابسى فى يدى وكذلك سوزى ، وأن نسير إلى غرفتها، وأن تتحدث مع والدينا تليفونيا لتصدر قرار فصلنا من مدرستها.

ولم يفعل والدى يومها أى شىء سوى أن أشاح بوجهه عنى . وكان هذا عقابا لو تعلمون عظيما، وكنت أتوقع علقة ساخنة بالكرباج- كما كان يهدد دائما ولا يفعل- ولكنه لم يضربنى، وقرر قراراً واحدا بدا لى غريبا، وهو أن يخرجنى من مدرسة أبناء الأشراف ليذهب بى فى الصباح التالى إلى مدرسة النهضةالنوبية.

وهى مدرسة تزدحم بأبناء البوابين، وكل أبناء الفقراء، ولها وظيفة واحدة أن تؤهل من يدخلها ليكون طباخا أو سفرجيا، وفى أرقى الحالات أن يكون سائقا عند واحد من ذوى الحيثية من أبناء الأتراك أو من الذين يقلدونهم وقد أسس هذه المدرسة أبناء النوبة لأولادهم بعد أن صدر قرار من صدقى باشا - أحد رؤساء الوزارة فى مصر بحرمان أبناء النوبة من التعليم، كى يتوفر دائما نبع متجدد لمن يخدمون الكبار فى بلدنا.

وحين دخلت تلك المدرسة فكرت بسرعة فى كيفية الهرب منها.. ووجدت الحل الفورى، فقد كانت المدرسة تعقد امتحانا لمن يلتحقون بها فى الفصول المتقدمة، كما أراد أبى ووقف المدرس ليطلب منى أن أكتب على السبورة اسمى، وبفعل من الخوف لا أدرى كيف كتبت اسمى من الشمال إلى اليمين، ويحتاج المدرس إلى أن يضع السبورة أمام مرآة ليقرأ الإسم صحيحا.

وحين سألنى فى جدول الضرب، قلت له إن اثنين فى اثنين يساوى ستين، فسألنى ، كيف أجبت لأن أى اثنين من الأخوة يتزوجان بأى اختين سينجبان بعد سنوات أبناء وبنين وأحفادا قد يصل عددهم إلى ستين أو أكثر.

واعترف الآن بأنى لم أقصد الكتابة بالمقلوب، ولكن الرعب من أعيش النهار فى هذه المدرسة، وألا ألتقى بأصدقائى وزميلاتى فى روضة الأطفال هو الذى جعلنى أكتب بالمقلوب ، وأعترف أيضا بأنى قررت أن أتمادى فى التمرد حين سألنى المدرس عن حاصل ضرب اثنين فى اثنين فقلت إن حاصل الضرب هو ستين.

ورأيت الغيظ وعدم الفهم على ملامح أبى وهو يتلقى قرار المدرسة بعدم قبولى وحين خرجنا من المدرسة بدأ أبى فى تهديدى بالضرب ، فقلت له : أين هو الله لأقابله شخصيا لأشكو له حالى، وتغير موقف أبى من الغيظ إلى الابتسام ، فقد كان يعلم أن سؤالى عن مكان الله هو بداية لتقديم شكوى منه شخصيا، ذلك أنى سألته هذا السؤال كثيرا، وكانت إجابته الدائمة هى التساؤل عما أريد أن أشكو منه.

وقال لى : إن الله موجود فى كل الوجود[1] وتستطيع أن تلتقى به حين تصلى، ولكن ماذا ستشكو له هذه المرة ؟ ومن أى شىء : قلت له: سأشكو له نبوية موسى . فقال لى والدى : حتى يقبل الله شكواك لابد أن تحفظ بعضا من سور القرآن الكريم.

وصحبنى إلى مدرسة تحفيظ القرآن الكريم واسمها "مدرسة الفتح المبين" وتقع فى شارع الكنانة الموازى لشارعنا. وعلى ناصيتها قسم الشرطة الذى أخافه تماما . وكانت المدرسة ذات طابق واحد وفيها شيخ مفتوح العينين لكنه لا يرى، اسمه الشيخ الميهى.

---

(١) الله تعالى مستوى على عرشه فوق السموات وموجود فى كل مكان بعلمه وقدرته.

وبدأ الشيخ فى تحفيظى القرآن، ومضت أيام وأنا مندهش من المدرسة الجديدة فالتلاميذ بها يأتون من منازلهم بالبيجاما أو *الجلباب*، وكنت الوحيد الذى يرتدى البنطلون والقميص، وكنت متميزا عنهم فى علم الحساب، وهم يتفوقون جميعا علىَّ فى حفظ القرآن الكريم. وكنت أجد صعوبة بالغة فى الحفظ.

وكنت أسمع حكايات أبى عمن يرتلون القرآن أمثال الشيخ عبد العظيم زاهر والشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل، وكيف أنهم قد ضمنوا لأنفسهم سعادة الدنيا برغد العيش، وضمنوا سعادة الآخرة لأن لهم بابا مخصوصا من أبواب الجنة سيدخلون منه.

وأبديت تجاوبا فى حفظ الآيات التى أفهمها، واستعصى على حفظ الآيات التى لا أفهمهما ولم تستمر الأيام السعيدة أكثر من أسبوع، والذى قطع تسلسل السعادة هو قول الشيخ لى أثناء عجزى عن حفظ بعض الآيات التى لم أفهمها "أنت حمار" .

وطلب منى أن أمد يدى لأتلقى لسعات الخرزانة على كفى وارتبكت بين الخوف والغيظ وما أن رفع الخرزانة ولمست يدى ، حتى صرخت بكلمات تسبه بأبيه وأمه وخطفت الخرزانة التى فى يده وصعدت على التختة التى أجلس عليها وأوسعته ضربا، مستغلا فرصة أنه أعمى وأنه لا يصلح مدرسا بل مجرد قارئ على مقابر الموتى.

وكان يصرخ قائلا إنى معجون بماء العفاريت وأنى الولد الفاسد للأب الصالح وكانت دهشة التلاميذ كبيرة وهم يشاهدون تلك المهزلة التى أنهيتها بالقفز من شباك الفصل إلى الشارع وعدت إلى المنزل بالجريمة الجديدة، التى أعلنتها لأمى، وأضفت لذلك رغبتى فى ألا أعيش معهم فى البيت نفسه لأنهم لا يفهموننى.

وحين عاد أبى أعلنت له أمى كل شيء، وطلبت منه أن أصاحبهما فى رحلة الحج التى سيقومان بها لعل الله يهدينى ولم يوافق أبى ولم يرفض ، وترك المسألة معلقة وسافرنا جميعا إلى القاهرة تمهيدا للسفر إلى السويس، وتوغلنا فى الليل وفى صحراء مظلمة تماما والجميع يردد "لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك " .

كانت أصوات ركاب الأتوبيس تبدد خوفى وخوف الجميع من الصحراء المظلمة. وأخيرا وصلنا إلى السويس لنركب الباخرة "جدة" التى سرعان ما بدأت فى مغادرة الميناء، وكنت أتعجب مما تحمله الباخرة ، فقد كانت تحمل شحنة مكونة من عربة مطافئ صغيرة والكثير من المساعدات التى كانت تقدمها مصر للمملكة السعودية، فضلا عن كسوة الكعبة .

وكانت المركب غاية فى الحرارة وكان علينا - أنا وشقيقتى ووالدتى أن نسكن فى الغرفة الصغيرة نفسها التى تقيم بها زوجة رئيس بعثة الحج. واستقبلتنا بدرجة من التكبر والإنزعاج ، وبدأت ببعض الكلمات السخيفة عن شقاوتى الظاهرة لعيونها. ولم أرتح لها، ثم حدث هذا الحادث الصعب، وهو تبولي على أم رأسها أثناء نومها.

وقد حدث ذلك بكامل إرادتى فحين سمعت رئيس البعثة يقول لأبى إنه أخطأ بصحبة طفل كثير الشقاوة إلى مثل هذه الرحلة وحين سمعت زوجة رئيس البعثة تلوم أمى لأنها استسلمت لإصرارى على أن أنام أنا فى أعلى سرير بالغرفة الضيقة المخصصة لنا بالمركب، حيث يوجد بالغرفة أربعة من الأسرة اثنان على كل جانب وبطبيعة الحال يوجد سرير يعلو السرير الآخر.

وحين قالت السيدة إنها تخشى أن يتبول عليها الطفل الذى هو أنا، أحسست بأنها تهدينى فكرة لامعة، وقررت أن أهديها ما تخاف منه وأن أنام

على هذا السرير الذى يعلوها. فما أن تأكدت من أنها غرقت فى النوم حتى بدأت التبول، فقامت فزعة صارخة ورأيت الخجل فى عيون أمى التى بكت بعنف. وصمتت السيدة حين رأت دموع أمى وأذكر أنى نمت نوما مفزعا فى تلك الليلة. ورأيت أبى فى الصباح وهو يقدم الاعتذار لرئيس البعثة وزوجته، ولاحظت نظرات الريبة والخوف منى وهى تملأ وجه رئيس البعثة وزوجته.

ولم تكن الرحلة بالمركب إلى الحج سهلة، فالمركب حارة لدرجة تفوق الوصف، وفجأة أعلن قبطان المركب عن وفاة أحد الحجاج. وقرر القبطان أن يلقى جثته فى البحر، حيث لم تكن توجد ثلاجات للجثث بالمركب. وكان مشهدا غاية فى الصعوبة، حيث اصطف بعض من الركاب ليروا واحدا منهم، وهو يسقط طعاما للسمك وأذكر أين قلت لرئيس البعثة : هذا مصير من لايحب الأطفال، لقد كان الرجل الذي يلقيه القبطان الآن كثير الشخط فى وجهى حين كنت أمر من أمامه. ضحك رئيس البعثة من شقاوتى، وفهم أنى أريد تهديده وشكا الرجل -ضاحكا- لأبى مما أقول له وقال لى أبى إنه يجب ألا أحدث رئيسه بتلك الطريقة.

ولعل كمية العدوان الذى ملأ طفولتى كان بسبب إحساسى بأنى طفل غير مرغوب فيه، فقد كانت أمى تؤكد دائما أنها عانت من افتقاد شقيقة جميلة لى قبل مجيئى إلى الدنيا، وأن اللبن فى صدرها قد جف حزنا على هذه الشقيقة. وكنت أحسن أنى طفل مفضل من أبى، وغير مفضل من عائلة أمى كلها. وكثيرا ما أعلنت أمى أنها تجد صعوبة فى تربيتى، وكثيرا ما تحولت كلماتها تلك إلى شرور صغيرة أو كبيرة منى، وواحدة من تلك الشرور هو تبولى فوق رأس زوجة رئيس بعثة الحج . ومازال خوفى من السقوط فى البحر يصحو فى قلبي أحيانا، ولكنه استيقظ مصحوبا بضحكة منى وأنا أنزل على سلم متحرك لأجد نفسى فى قارب يمرق فى مياه المتوسط لأصل إلى رصيف ميناء بيريه.

وما أن وطأت أقدامى أرض ميناء بيريه، حتى بحثت عن طريقى إلى أثينا التى يمكن الوصول إليها عبر الترام المتشابه مع ترام الاسكندرية. وتعجبت من امتلاء شوارع أثينا بمن يبيعون أوراق اليانصيب . كنت أظن أن أهل اليونان أكثر تحضرا من بقية سكان الأرض، فهم أهل الاسكندر الأكبر . ولكنى وجدت أمامى شمسا واضحة، ورذاذ مطر خفيف وقررت أن أتجه إلى السفارة المصرية فى أثينا، على الرغم من أن اليوم أحد- أى إجازة رسمية- فى كل أثينا، وكأنى كنت أتجه إلى لقاء رجل ستكون بينى وبينه فى المستقبل عداوة هائلة . ووجدت نفسى أصرخ فجأة فى الميدان المقابل للسفارة المصرية بأثينا"أنا حر" يا أولاد الكلب "هل كنت أؤكد قدرتى على اختراق الحجب والخروج عبر أسوار لا نهائية التعقيدات والحواجز".

واتجهت إلى السفارة. ودققت الباب وانفتح أمامى باب قصر كبير، وأطل منه خادم ليأتى السفير بعد دقائق.

كنت أعلم أن كل مسئول فى موقع ما يحتاج إلى صحفى يسمع له. وكنت أثق فى قدرتى على أن أفحص كلام أى مسئول مهما على شأنه ولا أعرف سببا لتلك الجرأة التى كانت تملأنى كان المسئولين فى أى موقع يعملون عندى. ولابد أنى كنت استصغر منصب السفير إلى جانب من أناقشهم من مسئولين فى مصر فحين كنت أزور أى محافظة ويقابلنى أى محافظ كنت أتذكر كلمات إحسان عبد القدوس: الكاتب هو الإنسان الحر، فلا يجب أن تسمح لأحد أن يسلبك حريتك تحت أية ظروف.

ها أنا فى لقاء السفير المصرى فى أثينا عبد المنعم النجار. وأثق بأن قدراتى على فحص أرائه ستكون كبيرة. وبدأت حوارى مع السفير فى موضوع لا يعنينى ولا يؤثر فى السياسة. فقد أردت اختبار معلوماته عن اليونان من خلال موضوع شديد التفاهة لكنه كان يملأ الصحف أيامها، ألا وهو سلوك

المليونير أوناسيس الذى يملك واحدة من أكبر شركات نقل البترول ويعيش على ظهر يخت يجوب به البحار. ومن العجيب أن سؤالى عنه تصادف مع سيول من مقالات الرثاء لجون كيندى رئيس أمريكا فى ذلك الوقت والذى تم اغتياله. وكانت دموع زوجته جاكلين كنيدى تملأ الصور الفوتوجرافية، ولم يكن أحد يعلم أنها ستتزوج من أوناسيس بعد سنوات قليلة.

سألت عبد المنعم النجار عن المليونير أوناسيس، هذا الذى كان اسمه يثير ثلاثة هواجس فى خيالى، الهاجس الأول هو الثروة التى لا حدود لها نتيجة امتلاكه لأسطول هائل من ناقلات البترول، وماذا يفعل بكل تلك الثروة؟ والهاجس الثانى هو كيف تقع واحدة في تمام الأنوثة مثل مغنية الأوبرا ماريا كالاس فى هواه؟ والهاجس الثالث هو لماذا يخطب السياسيون ود ذلك المليونير الذى يسكن فوق يخت يدور فى البحار؟

وذكر لى السفير المصرى عبد المنعم النجار أن المليونير أوناسيس لا يدفع ضرائب للحكومة اليونانية أكثر من دراخمات قليلة تساوى ثمانية عشر قرشا مصريا، لأنه يقضى حياته فى يخت على البحر. وكنت أعلم أن أوناسيس يدير أكبر أسطول بحرى لنقل البترول. ومعنى ذلك أن أجهزة مخابرات الكرة الأرضية تقف وراءه.

أيقنت بأن وجه السفير المصرى فرح بى ، لكن كان هناك شيء غير مريح فى ملامحه. وعلمت منه أنه فى طريقه إلى القاهرة، ثم سيطير إلى باريس ليتسلم عمله كأول سفير لمصر بعد عودة العلاقات المصرية الفرنسية. تواعدنا على اللقاء فى باريس، ثم نزلت جريا لألحق بالمركب سوريا فى ميناء «بيريه» وما أن بدأت أصعد سلم الباخرة حتى أخبرنى وجه القبطان أنيس أنسى أن الباخرة لن تغادر الليلة ويمكننى أن أقضى الليل فى أثينا الصاخبة.

ماذا يفعل شاب فى نهاية عامه الثالث والعشرين فى عاصمة اليونان؟

تذكرت وجه صديقى صاحب الجذور اليونانية ، والمتمسك بمصريته على الرغم من أنه ينطق اللغة العربية بصعوبة مخالى الذى يمتلك محل الإليت فى الاسكندرية. وبدأت أغرق فى تفاصيل حياته بذاكرتى، فهو الذى ولد فى دمهنور وأحب كريستينا ابنة صاحب محل البقالة الكبير، وجاء إلى الاسكندرية ليقع فى أسر محبة الفن التشكيلى ومصاحبة الفنان سيف وانلى.

كان مخالى وإيليت هما عطر الاسكندرية الجميل. ليال كثيرة أمضيتها مع سيف وانلى ومخالى، ويحترف سيف الصمت ويحترف مخالى الكلام يحكى عن قراءة المستقبل العاطفى بحكاية يونانية شعبية، حيث أمسك العاشقان بالعظمة التى تقع فى صدر الفرخة ويحاول كل منهما أن يشد طرف العظمة الذى يشبه رقم ثمانية.

فإن انكسر طرف العظمة وهو يحمل المثلث المدبب الذى يربط الطرفين. كان الطرف الذى يأتيه رأس المثلث المدبب هو قوى الشخصية. كنت أفكر فى هذه الحكاية والترام المغادر لميناء بيريه يحملنى مرة أخرى إلى أثينا، وكان معى مظلة المطر التى كنت قد نسيتها فى النزول السابق من المركب سوريا، وتسبب ذلك فى بلل البالطو الذى أرتديه، على الرغم من أنى اشتريته كواق لى من المطر.

علقت على تسرب المطر فى قماش البالطو بأنه يشبه : اشتراكية بلادنا ينفذ منها الاستغلال والنفاق، ويعيش المواطن أسير الهتاف فقط ضحكت لنفسى من تصور ذلك بينما كان الترام يقف لتصعد فتاة جميلة قلت لنفسى لعلها واحدة من إياهن. كنت أعنى واحدة من بنات الليل المحترفات، هذا الصنف الذى تنفصل فيه روحه عن جسده. وأعرفه جيدا، لأن جارتى فى البنسيون الذى

أسكنه كانت تعمل فى ملهى ليلى، ولم تكن تنزل إلى الملهى إلا بعد أن تصلى العشاء .

ثم أسمعها وهى تبتهل إلى السماء طالبة الرزق من أجل أن تربى "جهاد"، و"جهاد" هو ابنها الذى فى السابعة من العمر. وكانت تحشر نفسها من بعد ذلك فى فستان يظهر أكثر مما يخفى، وتقول وهى على باب البنسيون: وسع رزقى يارب. كنت أضحك منها كثيرا . وكانت مدام "كيتى" صاحبة البنسيون العجوز تنهانى عن هذا الضحك الساخر. كانت مدام كيتى تعلم أنى أضحك عليها هى أيضا حين أدقق النظر فيها عندما تتوتر كل يوم سبت وهى تتحامل على جسدها العجوز النحيف وتنزل من البنسيون لتشارك وتشاهد سباق الخيل.

فهى تدمن هذا السباق وتدمن أيضا تربية الكلاب والقطط وتدمن مصادقة أى شاب يقبل العبث معها، وتعده أن تقدم له علاقة مع فتاة بولندية تقيم فى القاهرة، وتأتمر بأوامرها . كانت مدام كيتى أرملة سائق تشرشل السابق، وهى ألمانية الجنسية تدير البنسيون المقابل لعمارة الإيموبليا فى شارع شريف.

وحين ضبطتنى أضحك على جارتى التى تطلب سعة الرزق من عملها فى الملاهى الليلية علا صوتها الغاضب وهى تذكرنى بأن حبيبتى دعت أكثر من مرة السماء بألا يراها أحد وهى تصعد معى إلى غرفتى فى البنسيون، وأنها سمعتها ذات مرة وهى تهمس بهذا الدعاء، فتراجعت عن إزعاجنا، ولم تعد تدق علينا باب الغرفة لتسألنى هل هناك أحد عندى أم لا؟

أذكر أن مدام كيتى قالت لى : "لا توجد سيدة منحرفة، ولا يوجد رجل منحرف ، لكن توجد ظروف منحرفة عليك أن تؤمن بذلك ككاتب، لأن مهمتك أن تدافع عن الإنسان، لا أن تلومه، فاللوم يحولك إلى واعظ لا يفهمه أحد، فقط يؤدي الناس معه الصلوات ويتركونه وحيدا من بعد ذلك.

حيتنى من صعدت إلى الترام وقالت بانجليزية ركيكة يبدو أنك غريب عن هذه البلاد.

أجبت : نعم " قالت "أنا مثلك إيطالية أقضى أياما كل عام فى اثينا وبيريه، وأحب اليونان كثيرا ، لذلك أركب مركبا تأتى من فينسيا إلى بيريه لتقف فى الميناء وينزل منها الركاب فى الصباح ليعودا إليها كل مساء. أسبوع من البقاء بين البحر والأرض.

أعدت النظر إليها حين قالت إنها ايطالية، فالايطاليات بالنسبة لى هن نساء من روايات البرتو مورافيا، ولنساء البرتو مورافيا تأثير شديد فى حياتى.

وسبب هذا التأثير قصة قصيرة ترجمتها زميلتى زينب صدقى فى مجلة روز اليوسف عن سيدة تلتقى برجل يفتن فن الحكى، فتنساب بجسدها فى حكاياته وتسافر معه إلى أفاق الإنسجام .

أذكر أن القصة قد نشرت فى روز اليوسف فى أواخر سنة ١٩٦١، وأذكر أن حبيبتى صعدت معى إلى غرفتى فى اليوم نفسه فقد صرنا نتعامل كزوجين منذ أن ربطت بيننا كلمات المراكبى العجوز فى القناطر الخيرية ودار بيننا هذا اللقاء المرجل الذى رغب فيه كل منا أن يذوب فى الآخر.

ومازلت أندهش عند تذكر تلك الغلالة الروحانية التى أحاطتنا ومحاولة كل منا أن يدخل إلى ما تحت جلد الآخر لعلنا نصبح كيانا واحدا. أتعجب لأن تلك الغلالة الروحية رفعتنى يومها عن كل ما أعرفه من خبرة محدودة عن اللقاء المكتمل بين الرجل والمرأة وبدوت كطفل لا يعرف كيف يحتضن حبيبته.

وكانت حبيبتى فى مثل طفولتى، ولكن موسيقى الاندماج احتوتنا معا بما يؤكد شدة اختلاف اللقاء العاطفى عن أى تجربة اللقاء بين الرجل والمرأة كأن لقاء الجسد بالجسد فى إطار الحب هو أمر مختلف أعدت النظر إلى الايطالية

من جديد متسائلا: ما الذى يجعلنى أصدق أنها ايطالية؟ وما الذى يجمع الغربات على درجة من الصدق الذى قد يبوح فيه الإنسان إلى الآخر ببعض مما فى نفسه.

وخرجت الكلمات من شفتيها بتلقائية الغرباء، وتساءلت السؤال نفسه الذى فى أعماقى "ما الذى يجعل الغرباء يريدون الاعتراف بأدق أسرار حياتهم" كانت هى أول من نطقت السؤال. وكنت أول من قال "إن الغريب يستطيع أن يحكى للغريب حياته كما يراها لا كما عاشها".

قالت : ويمكن أيضا أن يقول الغريب للغريب بأدق تفاصيل حياته، وهو متأكد من أنه لن يستخدمها ضده.

أقول : الغريب قد يلعب فى حياتك دور قسيس الاعتراف ، تلقى فى وجهه كل ما عندك من خطايا، وأنت واثق بأنك لن تلتقى به مرة أخرى.

قالت وهى غارقة فى الضحك: هذا أدق وصف.

فغرقت فى الضحك وأتابع القول : أستطيع أذا أن أتحدث إليك وأن تتحدثى لى بما لا يخاف أى منا من سوء استخدام المعلومات.

قالت : روعة لقاء الغرباء تتلخص فى ذلك.

أقول : إن المبادئ والملابس والأشخاص مهمتها فى المدن الكبيرة أن تغلف الإنسان بغلاف يساعده على لقاء غيره ممن قاموا بتغليف أنفسهم أيضا.

تقول : تصور كل منا عبارة عن تاريخ وجغرافية. مغلفة فى الملابس ؟ ولكن المصادفة التلقائية تحرر أفكارنا من التغليف المسبق.

أقول : أنا كمصرى دارس للفلسفة أحب هذا النوع من التفكير.

تقول : مصرى إن وطنك يعنى لى أشياء كثيرة.

أقول : لقد لخصوا لى الوطن فى جواز سفر يحمل اسمى. ومهنتى كصحفى . وها أنا ذا سأقضى ليلتى فى أثينا دون أن أعرف كيف؟

تقول : سنتجول فيها، فأنا أحفظها، وعندما ترغب فى العودة إلى المركب التى تنزل بها سأعود معك، لأنك لا تعرف أنى قادمة فى مركب أخرى تقف إلى جانب مركبك المصرية.

قلت : كيف عرفت أن مركبى تقف الآن فى الميناء ؟

أجابت : لقد سألنا قبطان سفينتنا. من منكم ترغب فى زيارة مصر؟ وأشار إلى السفينة الواقفة إلى جانب سفينتنا. وقال بما أن كل سفينة ترفع علما تصبح قطعة من بلادها فأنا صديق للقبطان المصرى ، ويمكن أن أطلب منه أن يوجه الدعوة لأى عدد منكم لتقضوا وقتا فوق المركب المصرية إنها قديمة ولكنها أنيقة.

أقول : وها أنت تلتقين بأحد الركاب.

تقول : لماذا أنت موجود فى أثينا ومسافر إلي أين؟

أقول : مسافر إلى باريس مهمتى العلنية مهمة صحفية، ومهمتى الحقيقية هى أن ألتقى بمن أحب.

تقول : هل ستقضى أياما فى روما؟

أقول : روما أعرفها من خلال صديق لأبى كان يرأس ورشة شركة «فورد» لإصلاح السيارات. وكانت ابنته صديقة لى وتمنيت أن أتزوجها، لكن أمى وقفت ضد فكرة الزواج بأجنبية، ولم يبق لى من الصداقة مع روما إلا ما أقرأه من أدب البرتو مورافيا، وعميق الإعجاب بصوفيا لورين.

تقول : ألا تتمنى أن تعيش فى ايطاليا.

أقول : أين أى أسرة متوسطة فى العالم تتمنى الهرب من أسرته إلي عالم آخر. أنا أعى هذه الحقيقة، وأقف ضدها تماما ، لذلك لا أرغب فى زيارة أى مكان آخر غير عيون حبيبتى.

تقول ضاحكة: ما أسعد حبيبتك بك.

أقول : صدقينى أنى لا أهتم بالعالم ولا بالكرة الأرضية الا لسبب واحد هو أن حبيبتى تسكن فى مكان ما من هذه الأرض.

وعلى الرغم من صدقى الشديد وأنا أتحدث مع الفتاة الايطالية، فإنى لم أمنع عيونى من قياس مدى قدرتها على دخول مغامرة عاطفية مع شاب مصرى وحيد سيقضى ليلة واحدة فى أثينا.

٢٧- امرأة زائدة على

حاجة الرجال الأغبياء !

أعرف أنها امرأة من صنع خيالى، تلك التى ظللت أدور فى بقاع وأصقاع وصحارى العالم كى أجدها، فلم تأت لى. وعلى الرغم من مكانتى كمحام مشهور فى المجال الدولى وقضايا الاقتصاد على وجه التحديد، وعلى الرغم من أنى تزوجت مرتين وفررت من الزواج فى المرتين، ولامست سقوف أحزان الاقتراب والافتراق، وتفوقت كثيرا فى مجال عملى، لكنى لم أصادف تلك التى ظلت تلاحقنى وألاحقها تحت بشرة كل من عرفت ورأيت من النساء، وعلى الرغم من أنى أحفظ ملامحها تحت جفونى، فإنها لم تتجسد أمامى طوال رحلة العمر.

أخيرا جلست على شاطئ مارينا أرقب ميلادها -فى خيالى- كعروس البحر التى تحكى عنها الحواديت فتخرج أنوثتها الطرية الإنسيابية كخيال من بطن موجة، لتختفى للحظة ثم تولد فى الموجة الأخرى، لتذوب ثم لتظهر فى الموجة الثالثة، لتبدأ فى الاختفاء، وبين لمحات الظهور والاختفاء أكاد أسمع دقات قلبى وهى ترتطم بتتابع عنيف لايشعر به أحد غيرى.

أمسكت بالجرائد اليومية التى لم ألمسها منذ أن اشتريتها فى الصباح، وشربت القهوة دون أن أجد مجرد الرغبة فى تصفح أحداث العالم، لا لشىء إلا لمعرفتى أن المشكلات الفعلية التى يعانى منها الكون، فكلمات الصحف -فى بقاع الأرض- تحكى عن مظاهر، ولا تكشف عن وقائع لأن الوقائع الفعلية تدور أحداثها بعيدا عن عيون الصحفيين والقراء معا. وجاءنى صوت جارى ليقول لى: مبروك التعيين الجديد. وقبل أن أجيبه، لمحت فى يده الجريدة فرفعت النسخة الموجودة على مائدة قهوتى، ورأيت صورتى. وفوجئت بصورتى فى الصفحة الأولى ، ضمن من تم تعيينهم كعضو لمجلس إدارة فى أحد البنوك.

شكرت للجار تهنئته، وضحكت من نفسى، لأنى كنت قد أغلقت كل تليفوناتى قبل إجازتى. ولم أقل لأحد أين أنا ، ومن المؤكد أن أحدا لن يصدقنى حين أقول له إنى لم أسع إلى أى منصب من أى نوع، لأن عملى كمحام يكفل لى مكانة رفيعة لا فى مصر فقط ولكن فى العالم القانونى على مستوى الكرة الأرضية.

فأنا واحد من المتخصصين فى القضايا التجارية الدولية، ولا يهمنى فى كثير أو قليل أن تضاف إلى مسئولياتى مسئولية جديدة ، لأن لى رأيا لا أقوله لأحد، حيث يكشف لى عملى وتجولى بين عواصم العالم الأساسية أن الكرة الأرضية ترتكب حاليا أعظم حماقاتها، وهى تركيز الثروة فى معظم بقاع العالم فى يد قلة من البشر، ويقابل ذلك إنتاج مزيد من الفقر.

وتقضى الحكومات أوقات حيرتها بتجريب الكثير من الحلول للمشكلات بالتغيير والتبديل فى المسئولين عن المواقع المختلفة، وكأن زاد الأمل والفرح الصغير الذى يولد فى أعماق من يتولون المسئوليات التى تبدو فى نظر البشر كبيرة،

كان هذا الأمل سيقوم وحده بوضع حلول للمشكلات. على الرغم من أن أى مسئول. كبيرا أو صغيرا سيكتم اكتشافه الفعلى، حيث سيعرف بعد أسابيع قليلة من تواجده فى المنصب أن المشكلات لن تجد حلولا لها لأنها تجمدت وصارت كجبال من السيراميك يحرسها قوم غير مرتبين لهم وجوه من البازلت الأسود، لا يمكن اختراقه بابتسامة أو حوار.

ولا يبقى لمن تولى منصبا سوى أن يبيع الوهم والأحلام فى تصريحات تجد لها سطورا فى الصحف. ويقوم فى الصباح ليرصد ماذا يقول عنه المنافسون له أو الطامعون فى المنصب، وماذا عن تقلبات بورصته الخاصة فى

دهاليز الدولة ؟ ويمكن أن يقرأ البخت فى الجريدة، وهناك من يسعون إلى البحث عن مستقبلهم عند العرافين.

أقول ذلك لا لأنى فقدت صوابى، ولكن لأنه يحدث كثيرا أن تستشسيرنى هيئة الأمم المتحدة فى مشكلات المجتمعات الفقيرة فى أفريقيا وآسيا. وأسهر الليالى لأجمع معلومات وأعيد ترتيب أولويات، ثم أكتب تلك الآراء، واتسلم شيكات بآلاف الدولارات مقابل ذلك، لأفاجأ عن بعد ذلك بانقلاب عسكرى فى البلد الأفريقى الذى كنت أدرس حالة اقتصاده، وأرى -على البعد- كيف حصلت الشركات الكبرى على نص التقرير الذى سهرت فيه الليالى ، لتستخدم معلوماته لحسابها.

فتجد مرتشيا برتبة شاويش، أو ضابطا صغيرا لتسهل له الاستيلاء على السلطة، وتضع أمامه فتاة بيضاء وثروة هائلة فى أحد بنوك سويسرا.

ويبدأ الثائر الصغير فى تنظيم سلسلة من الخطابات النارية اللاهية ضد فساد من سبقوه، وكيف أنه سيقيم العدل. وفى الوقت نفسه يأتى له مندوب الشركة التى قادته إلى السلطة بقائمة من المطالب، فيوافق عليها جميعها، إلى أن يقترب منه مندوب شركة منافسة ، ويشرح له مدى ما يمكن أن يستفيده من أموال وقصور ومنافع ، ويقدم له عربون الصداقة الوليدة، وتكون فى الأغلب هدية فائقة الثمن جيدة الصناعة.

وقد يكون العربون هدية آدمية، موجزة فى شكل غانية من بنات أوربا الشرقية اللاتى يتم تدريبهن على فنون بيع الجسد، فينقض اتفاقه مع الشركة الأولى، ويحارب بالمرتزقة من أجل طردها.

والمثل الواضح الظاهر أمام كل شعوب الأرض هو عملية تعيين موبوتو سيسيكو كرئيس للكونغو فى أواسط التسنينيات، بعد أن قتل رئيسها المنتخب

لوممبا بيديه خنقا، ثم قتل من بعده شريكه فى التآمر المسمى تشومبى، ليستمر موبوتو فى حكم الكونغو أكثر من خمسة وعشرين عاما.

وقام بتغيير اسم البلد من الكونغو إلى زائير، ثم قام بتغيير اسمه شخصيا، وتزوج أختين فى وقت واحد، وبنى قصرا للحريم فى سويسرا وآخر فى المغرب، وكان يقضى الليل فى ساحة متسعة من قصره يوجد فى سقفها حوض سباحة، وقاع حوض السباحة من البلور الصافى، وترقص فيه فرقة من الباليه العارى، ويجلس موبوتو تحت هذا السقف يستمع للعرافين، ويدعو زعماء قبائل الكونغو، ويقدم لهم الهدايا والنقود، تلك الهدايا التى تعود إليه مرة أخرى بعد إنشائه عصابة تسرق تلك الهدايا فضلا عن أن النقود التى أعطاها لرؤساء القبائل سيضطرون إلى دفعها كرشاوى لقضاء مصالحهم فى هيئات الحكومة المختلفة.

هكذا مضت حياة موبوتو سنوات طوال، ظلت فيها الشركات التى تستنزف مناجم النحاس واليورانيوم والماس راضية عنه. ثم قررت بعض من الشركات الأمريكية أن تدخل فى منافسة الشركات البلجيكية التى كانت تتحكم فى كل ثروة الكونغو، واتفقت الشركات الأمريكية مع بعض من المرتزقة على تأسيس حركة سياسية جديدة تزعج موبوتو لعلهم يطردون الشركات البلجيكية.

وقامت الشركات الأمريكية بتجنيد واحد ممن تمتلىء أفواههم بكلمات الثورة والحرية، وهو لوران كابيلا. وكان من قبل مجرد شاب ثائر فى منتصف الستينيات وانضم للمقاتلين فى جيش تحرير العالم الذى أسسه أرنستو تشى جيفارا بطل تحرير كوبا فى أمريكا اللاتينية وشريك كاسترو فى صناعة الثورة الكوبية، والذى قرر أن يحارب الاستغلال فى كل مكان فقام بتكوين هذا الجيش من شباب العالم ليخوض رحلة تحرير الكرة الأرضية.

وكان من بين الذين انضموا لهذا الجيش الشاب لوران كابيلا. ولكن بعد شهر من مراقبة جيفارا للمقاتلين معه، حتى اكتشف أن كابيلا يسرق قطع اللحم من حلل الطبيخ ويسرق نقود زملائه الذين يشاركونه التدريبات. ثم لحظ كذبه فى أى معلومات يقدمها، فطرده من صفوف الجيش المكون من الفدائيين.

وعاد كابيلا إلى بلاده ليلعب لحساب أى هيئة تطلب معلومات أو عمليات من عمليات المرتزقة فعنده من خبرات جمع المرتزقة الكثير، إلى أن جاءه بعض من مندوبى العديد من الشركات الأمريكية التى تعمل فى استخراج الماس والنحاس، وكون من أجلها جيشا من الجوعى الذين لا يهتم بهم موبوتو.

وبدأوا فى سلسلة من الحروب الصغيرة ضد سلطات الدولة. وبما أن كل شىء فى إدارة موبوتو سيسيكو كان يتم عن طريق الرشاوى الصغيرة، فقد توغل كابيلا فى مخزن أسرار الدولة ليخدم تلك الشركات التى وعدته فى حالة هزيمة موبوتو أن تعطيه الكثير.

وأثناء عملياته القتالية كان يجمع المعلومات، ويقوم بتقديمها لتلك الشركات. ثم حانت اللحظة الفارقة فى الصراع بين موبوتو ومجموعة من الشركات البلجيكية. ودخل على الخط بعض من شركات شارع الأناقة والثروة في نيويورك، وهو الشارع الخامس؟

وقامت هذه الشركات عن طريق الزعيم الجديد الذى تمت تربيته ألا وهو كابيلا بتدبير انقلاب ضد موبوتو. وفى ليلة الانقلاب كانت هناك طائرات فى مطار الكونغو تمتلئ بالمرتزقة الذين استقدمتهم الشركات الأمريكية من كل بقاع الأرض، وكانت هناك طائرة تضم فرقة أخرى من الهدايا النسائية فرقة تضم أكثر من غانية من بنات كوسوفو والصرب من يوغسلافيا السابقة.

وهى بنات قامت شركات عالمية أخرى بخطفهن وتدريبهن على أعمال الغوانى وفنون ممارسة اللذة. وبطبيعة الحال تم تدريب البنات المخطوفات على

فنون الحب واللذة عن طريق الضرب والتجويع والتهديد بتشويه الوجه. وهذا هو أسلوب التدريب الذى تعلم به الفتاة المخطوفة أنها لن تعيش إلا إذا أتقنته ، حيث يتم استخراج القرد المخفى داخل كل جسد بشرى لتعليمه ما يراد له أن يتعلمه، حتى أفعال التجارة بالجسد يتم تعليمها بقوة تدريب القرود والأسود والكلاب نفسها.

وبعد التدريب يتم بيع البنات لمن يدفع الثمن. والغريب أن بعضا من رجال البوليس الدولى فى يوغسلافيا هم الذين كانوا يشرفون على أعمال خطف البنات، ثم يتم تدريبهن فى بعض من القرى البعيدة عن العيون فى بعض من بلاد أوربا الشرقية.

وهكذا سافرت أكثر من واحدة من الغانيات لإذاقة كابيلا فنون اللذة مع كثير من النقود والوعد بالحياة الناعمة. وكان موبوتو سيسيكو قد عانى كثيرا من صراعات زوجتيه -وهما اختان فى الوقت نفسه- وكانت كل منهما تصرف ملايين الدولارات على السحرة من أجل ألا يقع موبوتو فى حب الأخرى.

ولم تكن أى منهما تلتفت إلا لبريق الحياة الناعمة فى سويسرا. وأخيرا انتصر كابيلا ليتولى الحكم ويموت موبوتو بالسرطان فى قصره بالغرب، ليتحدث العالم من بعد ذلك عن رحلة الضرب وشد الشعر والخناقة على بعض الأشياء التى كان يملكها موبوتو بدءا من السيارات إلى أرقام الحسابات السرية. وكان لوران كابيلا فى هذا الوقت يتحدث عن مستقبله الناعم مع واحدة بيضاء من يوغسلافيا السابقة، ويحكى لها عن مغامراته الوهمية التى أسند له فيها جيفارا بعضا من العمليات الخطيرة.

ولم تكن الجميلة تعرف من هو جيفارا، فقد أنستها رحلة التدريب على أعمال العهر المتقن أنها كانت ذات يوم ابنة قاض عظيم فى يوغسلافيا، فكيف يمكن لها أنر تتذكر أن ثائرا مرَ على هذا العالم كان اسمه جيفارا؟ وكانت

الغانية تستمع له، وتتدلل عليه. وتمارس دورها فى الحياة التى تراها مجرد لعبة خبيثة لابد أن تنتهى يوما. وكانت تستمع منه عن أحاديث ثروات النحاس والماس، وقصص صراع مجموعات من الشركات البلجيكية مع مجموعة من الشركات الأمريكية.

وما رويته كان مجرد نموذج عن بلد واحد من بلاد أفريقيا، وهو بلد درست أوضاعه الاقتصادية والسياسية، وقدمت دراسة وافية للأمم المتحدة عن مشكلاته، وأكاد أجزم بأن التقارير التى كتبتها أنا للمنظمة الدولية قد تسربت بشكل أو بآخر إلى أيدى أجهزة المخابرات العالمية لتعيد تلك الأجهزة ترتيب أوراق اللعب مع بقية دول العالم خصوصا هذا الجهاز الأخطبوطى المسمى : سى أى إيه . ليساعده جهاز الموساد الإسرائيلى ويرسم الاثنان مع بقية أجهزة مستقبل استغلال ثروات الكون.

هكذا أتاح لى عملى كمحام كيف أنظر بعمق فى كل أرجاء الكون، لأرى تفاصيل حياة البشر سواء فى مصر أو فى الخارج ، وصرت أعلم تفاصيل حياة الشركات الضخمة التى تتراقص أسماؤها فى إعلانات الصحف وكيف يتهرب أصحابها من ديونهم عند بعضهم البعض، ويستخدمون الشيكات التى لا رصيد لها، وأعرف أيضا عددا بسيطا من رجال الأعمال ممن تثق بأن الشيك الخارج منهم صالح للصرف. وهؤلاء القلة يعانون بشدة من غياب الثقة المتداول بشكل غير مسبوق لا فى السوق المصرى وحده، ولكن فى أسواق العالم أيضا.

حين قرأت اسمى فى قائمة عضوية مجلس إدارة بنك كبير، فتحت الموبايل الخاص بى، وسألت أحد أصدقائى المسئولين "كيف تضعون اسمى فى مجلس إدارة بنك دون أن تسألونى". ضحك المسئول قائلا : من المؤكد أنك تعرف أسماء كثيرة تبذل جهدا وتبحث عن وساطات من أجل هذا المنصب، ولكنا اخترناك لدقة فهمك القوانين، فلن تسمح بمسلسل التلاعب الذى يحاول

البعض أن يغرق الاقتصاد المصرى فيه. أيقنت بأنى متورط فى منصب قد يشغلنى عن مكتبى والقضايا التى توكلها لى شركات عالمية. ولم أقل للمسئول الكبير إنى هنا فى مارينا أرقب صورة امرأة تطل من موجة كخيال لتختفى، ثم لتظهر، لأنى أشتاق إلى ملامحها تلك التى تطاردنى من بداية عمرى، وحتى هذه اللحظة، ولم ألتق بها حتى الآن على الرغم من أنى تزوجت مرتين.

كان الزواج الأول ابنا لصفقة واضحة قام بتلخيصها فؤاد المهندس فى مسرحية "سك على بناتك" حيث كنت متفوقا فى معرفة ما يقرب من عشرين ألف صفحة هى مقررات الدراسة فى كلية الحقوق. وكان تفوقى نابعا من قدرتى على ربط ما أقرأه فى علم الجنائى بعلم الإجراءات بتاريخ القانون. ولا أعلم كيف كانت تقام الجسور بين ما أقرأه فى أى علم والعلم الآخر، لدرجة أن أساتذتى لاحظوا أن ما أقرأه حتى فى الجرائد يمكن أن أجد له تحليلا قانونيا يستند إلى كل ما درسته من مواد فى الكلية. واتفق الجميع على أنى من المتفوقين الذين يجب أن ينضموا إلى هيئة التدريس.

وغالبا ما تكون هناك ابنة أستاذ ما فى عمر الزواج. وغالبا ما تستعرض زوجة الأستاذ، إن كانت قوية الشخصية- تلاميذ زوجها، لتختار من بينهم عريسا لابنتها. وهكذا وجدت نفسى فى موقف المدعو دائما إلى بيت الأستاذ. وسمعت النقد القاسى للأستاذ من زوجته، لأنه كاد فى أحد الأيام يفرط فى التدريس للسنة الأولى فى كلية الحقوق. وكان هذا يعنى خسارة آلاف الجنيهات من دخل الكتاب الجامعى.

ولا أحد يعلم ضراوة الصراع على كتاب سنة أولى حقوق إلا لمن يحضر جلسات تقسيم المحاضرات بين كبار الأستاذة فعلى الرغم من أن معظمهم لهم مكاتب محاماة عالية القيمة، يعمل فيها المعيدون، والمدرسون المساعدون، وأحيانا بعض من مستشارى القضاء المتقاعدين، وعلى الرغم من أن أى مكتب محاماة

لأستاذ جامعى هو من المكاتب التى تولد دخلا هائلا لصاحبه، فلإن كتاب سنة أولى حقوق يمثل ثروة لا تستهين بها الزوجات.

وأشهد أن الأستاذ كان رقيقا، وأن زوجته أخفت عنى أن ابنتها مريضة بالصرع . وحين سافرت معى العروس فى بعثة دراستى للدكتوراه فى باريس، اكتشفت حكاية الصرع تلك حيث عدت ذات مساء لأجدها غائبة عن الوعى ملقاة على أرض المنزل كقطعة من الحجر، فظننت أن هناك من قتلها، وتملكنى رعب شديد.

ولكنها أفاقت لتحكى لى كيف تعانى من الصرع منذ كانت فى الاعدادية، وأنها تخاف من الجلوس طوال النهار بمفردها، وأحسست بأن الأستاذ قد خدعنى ، وأنه قدم لى زوجة مغشوشة. كنت ممتلئا بالغيظ من الأستاذ وزوجته، وابنته، وعلى الرغم من ذلك طلبته تليفونيا لأحكى له تفاصيل سقوط ابنته على أرض البيت، وأنها تحتاج إلى علاج .

كنت أشعر بأنى أحمل كائنا آخر فوق أكتافى المرهقة بالدراسة، فدراسة الدكتوراه فى القانون بباريس تستهلك اليوم من الثامنة صباحا إلى الثامنة مساء لعدة سنوات. فكيف لى أن أتحمل عذاب رعاية واحدة مريضة بالصرع؟ وكيف لى أن أطمئن عليها حين أتركها طوال النهار، لتعيش مرهقة من فرط الإحساس بالوحدة فضلا عن أنى لم أجد أدنى درجة من التفاهم معها، فهى ككيس العجين الأبيض الذى يستجيب لكل ما أطلب دون أدنى تفاعل.

وتطلب شرائط توم وجيرى طوال الوقت وتجلس أمام الفيديو فى الحجرتين الصغيرتين التى عثرت عليهما بصعوبة خارج باريس. وتدمن الاتصال التليفونى بوالدتها، ولم يكن راتب البعثة يكفى وسمعت هى كيف كان هناك زميل لى يدرس معى الدكتوراه ومتزوجا من ابنة فنان مشهور، وكيف كان يضرب زوجته من أجل أن تطلب من والدها الفنان المشهور بعضا من المال.

ولكن كان الفنان المشهور يتقن البخل حتى على نفسه، فلم يسأل فى ابنته التى ذهبت إلى البوليس الفرنسى أكثر من مرة وهى مضروبة من زوجها. وأخيرا تم ترحيلها هى وزوجها من باريس. وبعد طلاقهما عاد الشاب بمفرده إلى سويسرا ليستكمل الدراسة. ولم تكن زوجتى تجد فى نفسها القدرة على مقاومة الرغى فى التليفون مع القاهرة.

وحين أعلنت لوالدها أنى لا أطيق الديون، صرخت ابنته فى التليفون أنى بخيل، فصرخت بأنى لا أطيق الحياة مع مريضة، وليس عندى ما أصرفه عليها، لأنى مجرد طالب بعثة. وعلم الأب أن حياة ابنته معى مستحيلة، فسدد فواتير التليفون، ومصاريف علاجها من الصرع. هذا المرض الذى أخفاه أستاذى وزوجته عنى وطلب منى الأستاذ أن أطلقها بهدوء. وقد فعلت ما طلب الأستاذ، وحمدت الله أننا لم ننجب.

وفى رحلة نسيان تلك التجربة دخلت حياتى فتاة مغربية تدرس الدكتوراه أيضا، وكنت أجد فى لهجتها وحيويتها ما يشد إهتمامى، ولكن كان يزعجنى فيها إيمانها الأعمى بالماركسية على الرغم من أنها تعيش وتتصرف كواحدة من أثرى بنات باريس، فأسرتها المغربية تملك من الأموال ما يفوق الخيال.

فضلا عن أن الماركسية كانت تذوب فى الكرة الأرضية، ودراستنا ووجودنا فى باريس جعلانا نرى قرب نهاية الماركسية من على خريطة الكون، ويكفى لكل من قرأ مؤلفات أساطين الفكر الفرنسى أن يتعرف على أزمة القرن العشرين الذى كنا نعيش فيه، التى لا يمكن أن يحلها الماركسيون، كما لا يمكن أن يواجهها الرأسماليون.

فالقصة أن هناك ستة مليارات من البشر تتجمع فى سماء خيال كل منهم طريقة للحياة تختلف عن طريق الحياة التى يتمناها الآخر، ورحلة صناعة حياة مقبولة من الجميع أمر مستحيل، وما يشغل خيال فقير فى إندونيسيا هو مجرد الرغبة فى جمع كمية من المال تتيح له أن يسافر إلى الحج.

تماما كساكن منطقة بلوخستان الواقعة بين أفغانستان وباكستان، لا يحلم إلا بعقد عمل فى أبو ظبى أو دبى، ولو كحمال فى الميناء من أجل أن يشترى حمارا أو حمارين ، حيث تمثل الحمير ثروة هائلة فى تلك البلاد، على الرغم من أن بلوخستان منطقة مزدحمة بالثراء، وبالمواد الخام، وقس على ذلك بقية بلدان الكون.

ولكن كثرة النقاش بين الرجل والمرأة تولد نوعا من الرغبة فى اكتمال الاكتشاف، وقالت المغربية لى إنها ستسعد لو عشنا معا كما يعيش الفرنسيون دون عقد زواج. وروت لى أنها كانت تعيش قصة حب هائلة مع شاب مغربى ماركسى مثلها، ولكنه مات تحت وطأة التعذيب. وقالت إنها تفضل الحياة الحرة على حياة القيود، وأنها لا تتمنى شيئا فى الكون قدر رغبتها فى الانتقام من قاتل زوجها ضابط البوليس المغربى الذى كان يحقق معه.

وانتقلت بالفعل لأعيش معها حياة راقية فى شقتها الفارهة الوثيرة فى الحى السادس عشر أرقى أحياء باريس. ولكن حدث أن هبط والدها فجأة لزيارتها وطالبنى الرجل بأن أتزوجها على الفور، وإلا أقام الاتصالات مع القاهرة فى شأن تغريرى بابنته ، وقاومت ابنته أسلوبه فى تناول الأمور، واتهمته أمامى علنا بأنه هو الذى أدخل حبيبها السابق إلى السجن ليموت هناك.

قال الرجل وهو يغالب دموعه : "أنا لا أملك غيرك فى الدنيا وأريد أن أحافظ عليك". صرخت فيه الابنة "تحافظ علىّ بأن تقتل كل أمل لى فى الحياة. قال لها : تزوجى هذا المصرى. ولن أعترض " قالت : ولكنه لم يعرض على الزواج فهل أجبره على ذلك؟" أحسست بأنى أشهد معركة لا داعى لها، وكنت أشعر بالراحة وأنا أعيش معها، فقلت للرجل "أرجو أن تقبل ابنتك الزواج منى.

فرحت الفتاة المغربية بتلك الكلمات ، كنت أتخيل وأنا أعقد قرانى عليها فى مسجد باريس أنى قد تعرضت إلى مؤامرة ما، ولكن الذى أراحنى أن والدها لم

يشترط مقدم أو مؤخر صداق، وإن كان قد اشترط ألا ننجب إلا بعد الحصول على الدكتوراه. وكرر أمامى بصوت مسموع أنه متكفل بمصاريف البيت كلها وأن راتب البعثة الخاص بى هو لمصروفى الشخصى، وأنه سيطلب بعضا من استشارتى فى مشاريعه، وكل استشارة سيكون لها أجرها.

ووجدت الرجل وهو يثق بى ليستأمننى على أدق أسرار عمله كصاحب سلسلة من المطاعم المغربية المنتشرة فى كل أنحاء فرنسا، وأيضا كتاجر سلاح للكثير من الحركات السياسية الأفريقية. ولم أناقشه فى مدى الحلال والحرام فى مجال تجارة السلاح، ولماذا لا يكتفى بسلسلة المطاعم المغربية المنتشرة بين أحياء فرنسا وتكفل له ثروة تصرف منها ابنته التى لا تنسى كل صباح تحليل أحداث العالم على ضوء ما قاله لينين وستالين وماو تسى تونج وتروتسكى، وكل هؤلاء الذين صارت عظام أفكارهم مجرد تراب تسرب عبر بقية الحقائق المولودة فى الكرة الأرضية.

لم أناقش الرجل فى ذلك لأنى علمت أنه يتفق مع بعض من رجال بوليس باريس على تسهيل دخول الشباب المغربى الراغب فى الهجرة مقابل أموال يتقاسمها مع رجال الإقامة فى مارسيليا وباريس.

وعشت حياتى مع ابنته، واعترف بأنها كانت راقية الإحساس، تدعونى كل أسبوع لسماع الموسيقى الكلاسيك، وتشرح لى الفنون الرفيعة وتزور مع اللوفر، لتحكى لى عن كل فنان عظيم، وتتوقف كثيرا أمام الجناح المصرى فى اللوفر لتضيف لى شخصيا ما أجهله عن تاريخ المصريين القدماء.

ولاحظت بعد انتهاء رسالة الدكتوراه أنها مضطربة كثيرا : حاولت أن أعرف سبب التوتر والصراخ على أتفه الأمور، وأخيرا قالت إنها التقت بقاتل حبيبها، ضابط البوليس المغربى. وتريد أن تتعرف عليه وتحلم بالانتقام منه. قلت

لها : إن الانتقام يعنى أنك لم تنس حبيبك الأول على الرغم من أنك زوجة، قالت: أنت لا تعرف أن الثأر عادة مغربية ؟ ضحكت مما قالت، لأنها تعلم أن الثأر عادة عالمية". طالبتين أن نظل فى باريس لنرعى ما يملكه الوالد من أعمال.

واستطاع الرجل أن يعرفنى إلى الكثيرين من كبار رجال الاقتصاد والسياسية والقانون فى باريس، وصارت أرائى لها صدى فهناك سياسة الكبار بين الأفكار التى أدرسها وأقرأها، وكانت مثار إعجاب الجميع فأنا أستطيع أن أحلل مسرحية على ضوء أنها جريمة مستمرة يدفع فيها الجمهور نقودا لرؤيتها لتزلزل جزءا من ضميره، وأستطيع أن أحلل جريمة على أساس أنها مسرحية ضحيتها هم من قاموا بها.

وقمت بتأسيس مكتب استشارات خاص بى فى باريس. وتدفقت علي مكتبى هذا العديد من القضايا الشائكة، وبدأت أرى كيف يتصرف العالم بخلاف الكلمات المعلنة. وحين أحسست بأنى أحتاج إلى العودة إلى بلادى. ولم أكن منتبها إلى أن زوجتى المغربية صارت لا توجد فى المنزل معظم الوقت ، وحين سألتها عن السبب لم تتردد فى أن تعلن لى أنها تشعر بعمق ارتباطها بالضابط الذى قتل حبيبها الأول، وهى ترفض أن تدخل فى علاقة من وراء ظهر الزوج.

أحسست بأنها مريضة بأن تكون ضحية لمن جعلها تعيش حزن افتقاد من أحبته من قبل. وأحسست أيضا بأن هناك من يطعننى فى رجولتى. لكنى قررت أن أهديها قرار الطلاق. صحيح أنى تألت كثيرا لعملية الطلاق هذه وصحيح أيضا أنى حسبت الأمر على أساس أن العلاقة قد استنفدت أغراضها. وأنى أملك مكتبا قانونيا رائعا فى باريس. وأملك شبكة من العلاقات الراقية كانت كلها نتيجة زواجى بها.

وتم الطلاق فى هدوء. وقال لها والدها"ستندمين لأنك تفرطين في رجل يملك عقلية لامعة "فقالت" ولكن أنفاس الهواء التى تخرج من أنف الضابط المغربى أكثر إغراء من كل عقول الأرض. وقمت بتحليل الأمر لوالدها، واقنعته بأنها مصابة بإحباط جسيم نتيجة سقوط الماركسية فى العالم. وكنت أشعر بأن ما تكسر فعلا هو حائط إهانة ضخم.

وتعلمت من يومها كيف أزور الأطباء النفسيين. ولا أنسى أبدا ما قاله لى طبيب نفسى فرنسى، حين عرضت عليه أحزانى، قال الطبيب "المرأة التى تترك رجلا يحبها، هى غبية لأنها لم تكتشف أفاق حبه لها، والرجل الذى يترك امرأة تحبه، هو غبى لأنه لم يكتشف أفاق حبها له.

ضحكت لكثرة الأغبياء من الرجال والنساء فى هذا العالم وأخذت الكثير من مضادات الاكتئاب. ولكنى كنت واثقا بأنى تحررت لأن هناك امرأة ما فى بلد ما ستأتى لى، لأكون بكامل رغبتى فى الذوبان.

وتدور ساقية الزمن لأكون هذا الأستاذ الذى يسألونه فى المشكلات التجارية والعلاقات العالمية. وأعود إلى موقعى كأستاذ بالجامعة. وكنت أصر على أن أعطى الطلبة كتبى بسعر تكلفتها، على الرغم مما أثاره هذا من موجات العداء من زملائى ضدى. ومنهم من أطلق الشائعات على شخصى، ولكنى كنت بينى وبين نفسى أشعر بعذاب الطالب الذى يدخر والده ثمن الكتاب الجامعى من مرتبه.

وتذكرت كيف كنت أطلب أنا من والدى ثمن الكتاب مرتين أو ثلاثة، لا لشىء إلا لأنى كنت أحب أن أذهب إلى السينما كثيرا، وكنت أهوى أيضا الذهاب إلى المسرح، ولم يكن والدى يمنحنى من مصروف اليد ما يكفل لى ذلك فكنت أضطر إلى الكذب على أبى لأخذ ثمن الذهاب إلى السينما أكثر من مرة فى الأسبوع ، وكذلك ثمن الذهاب إلى المسرح ولو لمرة واحدة فى الشهر. وحين

صرت أستاذا كنت أوصى الطلبة بألا يفعلوا ذلك. وكانوا يضحكون وأنا أحكى لهم تذكاراتى تلك.

ولم يكن شراء السيارة أو الشقة التى على النيل أو الشاليه فى مارينا امرا قاسيا، فكل ذلك لا يصل إلى جزء بسيط من أتعاب قضية تهريب مخدرات أو صفقة بين شركتين كبيرتين.

وهناك فى القانون دائما رؤية تتيح لك أن تضع يدك على حل القضية، لتجد فيها الحكم لصالحك بمجرد مناقشة صاحب القضية وتصفح أوراقها. وكنت أملى على العديد من المحامين الذين يعملون معى المذكرات القانونية اللازمة. وكل قضية ليست إلا مسألة وحساب لن تكون صعبة على من درس القانون من كل أوجهه.

وكنت أضحك لزملائى وتلاميذى عندما أقول لهم "إن القانون هو فن الهروب من العقاب الأرضى، ولكن ماذا سنفعل أمام عدالة السماء". وحين كنت أقول ذلك تأتى على الفور صورة زوجتى الثانية وهى تقول لوالدها"إن أنفاس الضابط المغربى أكثر قيمة من كل أفكار الكرة الأرضية.

ها أنا ذا أذهب إلى عملى الجديد فى البنك الذى عينونى فيه. ووجدت الحقيقة الواضحة أمامى، وهى أن الكل يفرح بالمناصب ، ولا يدرس جيدا كمية المتاعب التى تنتظره من تحت الكرسى.

وفوجئت بأنى أدقق النظر كثيرا فى مديرة مكتبى، وهى سيدة مطلقة حديثا من زوج قيل إنه استغلها فى تأسيس شركة من شركات البورصة، وأخذ كل أموالها، وهرب إلى الخارج وأرسل لها ورقة الطلاق على الرغم من أنه أنجب منها طفلا. ولا أعرف ما الذى شعرت به حين قدمت يدها لتصافحنى. لا أعرف ما الذي دار فى صفاء عيونها حتي وجدت قلبى الذى يقترب من الأربعين يدق بحساسية بالغة، وكأنه ينبئنى أنى أمام المرأة التى تمنيتها أنا شخصيا.

ولم تكن فى حاجة إلي رفض دعوة العشاء التى قدمتها لها فى الهيلتون ، حيث يمكن أن أرى النيل فى خلفية المائدة. ولم تكن كلماتها سوى لحن لا أتعرف على ما فيه من كلمات، حين روت لى أنها خطبت مرتين، وتزوجت مرة واحدة، وكانت دائما تعطى دون أن تنتظر من شريك العمر عطاء.

قلت لها" أنت امرأة زائدة علي حاجة الرجال الأغبياء، لذلك دعينى أعرض عليك الزواج الفورى. وقد يتعجب أى إنسان حين يعلم أنى أيقظت المأذون وعقدت القران فى منتصف ليل الأسبوع الماضى. وطالبت المأذون بأن يحضر هو الشهود ويعد عقد القران طالبتها بأن ترعى ابنها وتتركه فى رعاية والدتها، لتسافر إلى الشاليه الخاص بى.

من الغريب أنها لم تقل لى أبدا كلمة . لا".

ومن غير اللائق ألا أقول أنى فكرت فى أن الطلاق قد يدق باب حياتى من جديد كما دق الزواج باب حياتى أكثر من مرة، وأقول لنفسى إن أحلام الستة مليارات إنسان الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضية قد تتصادم كثيرا، كما قد تتصادم الصورة التى رسمتها لتلك المرأة فى خيالى، وقد أكون واحدا من الأغبياء الذين يفكرون فى الابتعاد عنها.

الآن أقضى أيام العسل الأولى ، ومازلت أرى زوجتى أمامى، وأراها مرة ثانية تظهر كلمحة من موجة تختفى لتولد من موجة أخرى. وأقول لنفسى "حين أجد أنها لا تلائمنى سأنضم إلى موكب الأغبياء الذين لم يعرفوا قدر أنوثتها تماما.

٢٨- فوق جسر الحنان والحيرة !

وكانت تلك كلمته التى ودعنى بها حين قرر أن يترك القاهرة نهائيا ليلتحق بصفوف المقاومة الفلسطينية ببيروت فيما بعد كارثة يونيو ١٩٦٧.

وهى الكلمة نفسها التى استقبلنى بها بعد أن ترك المقاومة وعاش فى إنجلترا، ليعمل كجراح كبير فى مدينة و«ايموث» الإنجليزية.

ولم أكن أعلم أن تلك المدينة الصغيرة تقع على حرف البحر وفوقها جبل يضم واحدا من أعتى سجون انجلترا، والمسافة بين يوم وداعه لى على رصيف قطار وايموث ، وبين رؤيتى له فى مارينا هى أعوام طويلة، ولكن الزمن يلعب فى الصداقة -أحيانا- دورا غاية فى الغرابة، حيث يمكن أن تتلاشى الأحداث والظروف، وكأن الصديقين لم يفترقا كل هذا الوقت الطويل.

عرفت د. حمدى وأنا أعيش أيام قلق عنيف فى منتصف الستينيات، حيث كنت -كمعظم أبناء جيلى- نرغب فى أن نمسك بنجوم السماء لنبنى بها بلدا مختلفا، وكنا نتشاجر مع جمال عبد الناصر فى خيالنا لأنه لا ينفذ ما نريده على الفور. فقد استطاع الرجل أن يحتل من الخيال قدرة المستطيع أن يحقق كل حلم . ولكن حمدى لم يكن مثلنا، كان حمدى يؤكد أن ما نعيشه هو تمثيلية ضخمة، وسيقع المسرح على رءوسنا جميعا، وليتحسس كل منا موقع البطحة التى ستصيبه.

وشهدت قهوة "وادى النيل" فى ميدان التحرير الكثير من النقاش حول هذا الأمر، وكان يشترك فيها عم هاشم الجرسون العجوز الذى لم يكن يبخل علينا بشراء سندويتشات الفول والطعمية على نفقته حين يخمن أننا مفلسون . كان حمدى من طلبة كلية الطب، وهاربا من أحد التنظيمات اليسارية، حيث دخل كل زملائه فى هذا التنظيم السجن، ولم يعترف عليه أحد، لذلك ظل خارج المعتقلات،

ولكنه عاش بإحساس المطارد. وعلى الرغم من ذلك لم يتوان يوما عن ارتكاب حماقات سياسية متعددة، حماقات تبدو بلهاء، ولكنها تحمل وجهة نظره فى مستقبلنا.

فقد طق فى رأسه ذات نهار أن منظمة الشباب التى أسسها عضو مجلس قيادة الثورة زكريا محيى الدين، وتبعه فى قيادتها قائد الجناح على صبرى الذى سجنه السادات من بعد ذلك، طق فى دماغ حمدى منصور أن يرسل برقية لجمال عبد الناصر يقول فيها إن وجود هذه المنظمة هو السبب فى ارتفاع سعر كيلو الأرز من ثلاثة قروش إلى سبعة قروش، لأنهم يكتبون الكثير من التقارير، ويستهلكون الكثير من الورق.

ومعنى هذا أن تستورد مصر من فنلندا الورق، وتصدر لها الأرز، مما جعل الحكومة ترفع سعر هذا اللون من الطعام الذى تحبه المائدة المصرية المتوسطة، لأننا صبرنا نستورد أوراقا أكثر مما ننتج أرزا، ويجب ألا يكتب أعضاء منظمة الشباب تقارير على ورق يفوق ثمنه ما نأخذه كثمن لتصدير الأرز.

وفوجئت بالشرطة تدق باب البنسيون الذى أسكنه ويحتل حمدى حجرة من حجراته، ويتم القبض عليه بتهمة التمرد على نظام الحكم. كنت أعلم أن أحدا لن يسأل عن حمدى، لأن عائلته تسكن فى المنصورة، وهو مقيم بالقاهرة ، ولا أدرى لماذا اعتبرت اعتقاله إهانة لى. ولا أدرى لماذا اندفعت إلى تولى مسئولياته كاملة، وقررت كصحفى شاب يملك الكثير من العلاقات مع الكثير من المسئولين حتى فى مكتب جمال عبد الناصر نفسه.

واستطعت التوسط للإفراج عنه بدعوى أنه صاحب وجهة نظر، ولا يرغب فى أن يقفز على مقعد أحد من المسئولين.

وكما قلت لواحد من أقرب المقربين لجمال عبد الناصر "إن حمدى منصور يعلم جيدا أن منظمة الشباب لها فضل حقيقى فى تعليم الكثير من أبناء الجيل الشاب معنى كلمة "وطن"، ومعنى كلمة "اقتصاد"، ومعنى كلمة "قومية عربية".

ولكن العيب الأساسى فيها أنها تعمل كالمطبعة التى تجعل الشباب مجرد عجين وتعيد تشكيله فيصبح كل عضو بها مجرد نسخة مكررة من غيره. ولم يفلت من هذا الأمر سوى أعداد قليلة من المفكرين الذين لا يمكن أن يستسلموا ويفرغوا عقولهم ليكونوا على هيئة النموذج الواحد الذى تصنعه منظمة الشباب.

وهؤلاء المقاومون هم رصيد هذا البلد لمقاومة تنظيمات "الإخوان المسلمين" وكنا نعلم أن تنظيمات الإخوان المسلمين تفعل ما تفعله منظمة الشباب حيث تصادر التفكير الحر، ويصبح الأتباع مجرد نسخ مكررة.

وبعد خروج حمدى من المعتقل استطاع أن ينجح فى كلية الطب بامتياز -لا أدرى كيف؟- وكان يعانى فور التخرج من أزمة عاطفية . حيث كان يحب بنت خالته التى تجيد القراءة والكتابة بصعوبة، ويراها أجمل نساء الأرض، لأنها ريفية حسناء. ولكن خالته قامت بتزويجها لضابط شاب، وكان راتب الضابط أيامها يكفل حياة لائقة.

وحين تم تعيين حمدى كطبيب مقيم فى وحدة صحية بإحدى القرى، فوجئت به يعود من القرية ذات مساء، وهو يطلب منى أن أشهد على زواج عاجل بينه وبين الممرضة التى تعمل معه، لأن وجودهما معا فى مكان واحد، مع مرور كل منهما بأزمة عاطفية خاصة ، هذا الوجود جعلهما يقتربان إلى درجة الذوبان الكامل، وأدمن كل منهما الآخر دون حب، بل يقتربان من بعضهما إلي حد الاندماج لحظة الرغبة، ثم يتشاجران طوال النهار.

وحين أخبرته أنها حامل قرر أن يتزوجها لأنه يرفض إجهاضها، ويرفض -أيضا- أن يولد له ابن دون أن يكون بينه وبين أمه عقد زواج.

وأذكر أن الممرضة هى التى رفضت ذلك تماما. وقالت أمامى بصوت واضح لحمدى " ما لم تكن تحبنى، فأنا لن أقبل عقد الزواج، وما فى بطنى لن أجعله يرى الدنيا، لأنى أيضا لا أحبك، ولكنك رجل على مزاجى، وأنا لن أتزوج طوال عمرى ، فكل الرجال أولاد ..." وتركتنا الممرضة - وكان اسمها هيام - وفوجئت بها تنظر لى وهى تقول " ألا تعرفنى يا أستاذ؟ أنا هيام بنت نعيمة وعبد القادر".

وارتج علىّ قولها هذا، لأن نعيمة وعبد القادر يمثلان فى قريتى قصة عشق من نوع نادر، فقد كانت نعيمة من أجمل جميلات البلد وهى التى أصرت على أن تتزوج عبد القادر، وهو رجل على باب الله يمسك مزمارا ويغنى، ويبيع من سوق إلى سوق بعض الخضروات وكثيرا من "البلغ والمراكيب". وكان يقول لى " أنت مندهش لأنى أغنى وأنفخ فى المزمار، أنا مثل والد عبد الحليم حافظ كان مثلى يبيع البلغ والمراكيب من سوق إلى سوق، وكان صوته أطرى من نسمة الفجر وأحلى من نسمة العصر، لكن صوتى أنا خشن من المعسل". وكانت نعيمة تحبه بلا حدود، وتضع ابنتها هيام فى قفص من الخوص، وتحملها على رأسها وتمشى بها مع عبد القادر من سوق إلى سوق.

وبعد أن انقطعت الصلة بينى وبين القرية، لم يبق من قريتى فى حياتى سوى بعض من الأخبار مثل خبر انتفاخ بطن عبد القادر انتفخ بتليف الكبد، ثم موته، وكيف قامت معارك بين رجال القرية ليتزوجوا من نعيمة، لكنها رفضتهم جميعا. واحترقت تجارة عبد القادر نفسها، أى بيع الخضروات من سوق إلى سوق وبيع البلغ والمراكيب.

ثم جاءتها الفكرة التى كانت تضىء أيامها مع الزوج بالسعادة، وهى خط الحلاوة الطحينية مع قرصين من الأسبرين كل خميس فى ليلة اللقاء الزوجى، فيزيل الأسبرين أية آلام من الرجل والمرأة ثم تقوم الحلاوة الطحينية بدور مولدة الطاقة. وكانت هذه أول "فياجرا" ريفية تم اختراعها فى قريتنا، وهى فياجرا محلية استطاعت نعيمة أن تنشرها بين نساء القرية. ونصحت بها النساء ليقدمنها للرجال . ومن أموال هذه الوصفة البلدية استطاعت أن تعلم ابنتها هيام حتى الإعدادية، وتدخلها مدرسة التمريض.

وتعلقت هيام بالشاب سالم الذى يحمل الثانوية الأزهرية وكان يعمل مساعدا للمأذون فتزوجته على الفور، لأن الزواج لم يتطلب سوى أن تترك نعيمة حجرتها البسيطة لتنام فى موقع البهائم حيث كان منزلها كله هبة من والدى لزوجها، أو بالأحرى هبة من جدى لوالد زوجها، وهو من كان يجرس البهائم . وما دامت لا توجد بهائم ويوجد مكان يمكن أن تقيم فيه نعيمة وتتيح فرصة لسعادة ابنتها، فما المانع. وهكذا تزوجت هيام بسالم.

وعلى الرغم من مرور أكثر من عام ولم ينجبا فإن الحب الذى جمع بينهما كان كفيلا بطرد كل الهمسات عن عجزه أو عجزها.

ثم وقعت الواقعة المؤلمة، حين تم طلاق بنت العمدة طلاقا بائنا من شيخ البلد عبد السميع واحتاج العمدة إلى محلل لتعود ابنته إلي زوجها الذي يرتبط معه بمصالح كثيرة، أقلها كتابة أسماء أبناء القرية الذين يعملون بالقاهرة وبالخليج ، وحتى الأموات منهم فى كشوف من يجمعون دودة القطن، ويتم تحصيل أجور مزورة من الفلاحين يدفعونها صاغرين فى الجمعية الزراعية.

كما يتاجر العمدة وشيخ البلد فى السماد. ولم أكن أصدق ذلك إلى أن رأيت اسمى أنا شخصيا كواحد من الذين يقبضون من جمع دودة القطن، وكذلك اسم أخى أستاذ الجامعة، واسم أمى وهى زوجة أهم رجل أنجبته

عائلتى، فضلا عن أنها من سلالة ذات ثراء، ورأيت أيضا اسم زوجة العمدة وأولاده، وأولاد أولاده، ومن النصب على الفلاحين كانت تتولد ثروة هائلة، لم يكن أى من العمدة أو شيخ البلد قادرا على التفريط فيها، على الرغم من أن عبد السميع يكبر ابنة العمدة بخمسة وعشرين عاما على الأقل .

وتم استدعاء سالم، وعرض عليه شيخ البلد مبلغ خمسمائة جنيه لقاء أن يكون هو المحلل. وحذره من أن يفعل مثل شوقى الذى خطف زوجة مساعد المخرج التليفزيونى حين لعب دور المحلل. وقبل سالم الأمر على أن يتم بعيدا عن زوجته هيام.

ولكن ما أن تم عقد قرانه على بنت العمدة حتى طالب بالخلوة الشرعية معها. ويبدو أن بنت العمدة كانت ذات دراية بما يجب أن يكون عليه العلاقة بين الرجل والمرأة، وهى -كما قال سالم فيما بعد- تحفظ كتاب ألف ليلة وليلة بأجزائه، وبكل ما فيه من حكايات فاضحة ، وأقسم سالم أنه سوف يقتل أى كائن من كان يطلب منه طلاق بنت العمدة.

وحين سمعت هيام بهذا الخبر طلبت النقل من الوحدة الصحية التى تعمل فيها، وطلبت الطلاق.

وفى الوحدة الصحية التى ذهبت إليها التقت بصديقى د. حمدى الذى كان يبكى فى قلبه قصة زواج بنت خالته من ضابط شاب . ويبدو أن وجود هيام مع د. حمدى ومعاناة الاثنين من التجربة العاطفية المكسورة قد أشعل بينهما الرغبة فى أن يتأكد كل منهما من نفسه بأقدام بنت العمدة.

وأراد د. حمدى أن يتأكد من رجولته المدهوسة بأقدام ضابط شاب تزوج من حبيبته. وارتبطا بهذا الرباط الغريب الذى جعلهما سمنا على عسل فى لحظات العناق، ثم "ناقر ونقير" فى بقية الأوقات.

ولم أندهش حين عاد د. حمدى ذات يوم من القرية التى يعمل فيها وهو غاضب غارق فى التوتر، فقد طلبت هيام النقل من العمل معه، بعد أن أجهضت نفسها.

وحينما بدأت الاستعدادات لحرب يونية، جاء الاستدعاء لحمدى، فكان من أوائل صفوف القوات المسلحة الذاهبة إلى الجبهة عام ١٩٦٧، ثم عاد بعد شهور من سيناء، يحمل أحزانه ، يضحك أحيانا دون سبب، وتلمع دموعه فى عينيه دون أن يحكى.

وحين أخذته من يده إلى صديقى الدكتور أحمد عكاشة، جلس معه لمدة ساعة، ثم سألت أنا أحمد عكاشة "من ماذا يعانى؟" أجابنى د. أحمد "يعانى من كرب الحرب، وهو كرب عظيم . ألم يحك لك عن المقاتل الذى ظل طوال ليلة كاملة يقول إنه لا يخاف من قصف القنابل.

وحين مرت من فوقه طائرة، سابت كل مفاصله وأخذ يبكى، وحين عادت الطائرة تحلق من فوق ذلك المقاتل ضربها بطلقة مدفع فأسقطها، فتجمهرت أكثر من طائرة على هذا المقاتل لتنسفه نسفا؟ ألم يقل لك عن زوج بنت خالته – وهى الفتاة التى أحبها– وقابله فى ميدان القتال عاجزا عن السير عائد إلى الضفة الأخرى من القناة، لأنه ببساطة فقد إحدى ساقيه. وتعاطف الغريمان على رمال الصحراء القاسية. ألم يحك لك عن كل ذلك؟"

كنت أعلم وجهة نظر أحمد عكاشة فى أى حرب حيث يرسل الكبار الصغار ليموتوا، بينما يتحدثون عن البطولات وعن الأمجاد، متناسين أن من ماتوا كانوا يملكون أحلاما صغيرة رائعة. ولم يكن أحمد عكاشة ضد حروب التحرير، ولكنه كان ومازال ضد حروب الدعاية السياسية التى تغتال أحلام شباب متحمس أو مجبر على القتال من أجل أفكار لا يؤمن بها.

خرج حمدى من القوات المسلحة بعد أن قال الأطباء أنه لم يعد يصلح للقتال لكثرة اكتئابه وعدم سماعه للأوامر.

وأيقظنى د. حمدى ذات صباح بدقات على غرفتى التى تجاور غرفته فى البنسيون ليقول لى : أرجو أن تساعدنى على السفر إلى لبنان سأنضم هناك إلى المقاومة الفلسطينية. وقد لا يسمحون لى بالسفر، لأنى كتبت منذ أسبوع رسالة لجمال عبد الناصر أقول له فيها "ليت من يعملون معك يصدقون ما تقول من مبادئ وأفكار". ومن المؤكد أنهم سيحاولون اعتقالى، وحتى أثبت لنفسى أولا أنى لست ضد الحرب ، ولكنى معها حين يتفق القول مع الفعل، لذلك سأنضم لصفوف المقاومة الفلسطينية.

ولم أجد – أنا كاتب هذه السطور– أى عقبة فى الاستئذان له بالسفر إلى بيروت ليلتحق بالمقاومة الفلسطينية هناك، ثم ليعيش فى عمان مع واحد من أبرز من حاربوا من أجل فكرة فلسطين وهو مقاتل فلسطينى اسمه "أبو على إياد" وهو من فقد عينه وذراعه فى إحدى العمليات الفدائية، وكان مسئولا عن تدريب وتنفيذ الكثير من عمليات القتال فى قلب إسرائيل.

عاش حمدى منصور أيامه مع أبو على إياد منطلقا يعالج الجرحى ويرفه عن نفسه بقصص عاطفية لا مستقبل لها، يكفى أن يقول الشاب للواحدة أحبك، وتبادله هذه الكلمة ويشهد اثنان ، ليصبح من حقهما أن يعيشا معا. لأن الموت قد يأتى فى لحظة واحدة فضلا عن أن كل شىء فى مناطق التدريب على السلاح ومقاومة الاحتلال كان يخضع لمنطق واحد، هو أن الفرد قد لا يعيش إلى الساعة القادمة.

وحين بدأت مذابح سبتمبر عام ١٩٧٠، وتم خروج الكثير من المقاتلين الفلسطينيين من الأردن، كان على حمدى منصور أن يعيش فى بيروت، دون عمل حقيقى، فقدم استقالته من المقاومة، لأنه لا يطيق أن يأكل خبزها، ولا يدفع

ثمن ذلك من علمه أو خبرته. كما أن الضغوط قد زادت عليه من أهله عبر الخطابات، فقرر أن يستكمل دراسته فى إنجلترا. وإلى هناك سافر لينجح بسهولة فى كل الامتحانات التى تعقدها إنجلترا للقادمين للدراسة فيها، ونال درجة الدكتوراه فى الجراحة، وقرر أن يهجر لندن ويعيش ككبير أطباء مستشفى وايموث، وهى مدينة ساحلية يوجد إلى جانبها أعتى سجون إنجلترا "سجن بورتلاند" وهو يضم المحكوم عليهم بأحكام طويلة المدة وبعضهم مسجون أبد الحياة" وكان يقيم داخل فى منزل خاص بالمستشفى.

وحدث أن سافرت إلى لندن، وقابلت صديقا مشتركا، فما كان من الصديق إلا أن رفع سماعة التليفون، واتصل بحمدى منصور . ووجه لى حمدى الدعوة لقضاء عدة أيام فى ضيافته، ولأن حمدى صديق كانت له مكانة كبيرة فى قلبى، لذلك لبيت الدعوة فضلا عن أنى رغبت أن أرى كيف يعيش هذا الشاب الذى سكن فى غرفة إلى جانبى لمدة سنوات، وكان بارعا فى الطب، وغير مؤمن بالكلام الكثير، ويؤمن بأن من يريد أن يهزم عدوه فلا داعى أن يتكلم، بل عليه أن يعمل وهو من عانى من أفكار تطفو فى رأسه، فيعلنها، وكانت نتيجة هذه الأفكار أن قضى أياما فى المعتقل، وقضى شهورا فى سيناء حتى عاد منها بعد هزيمة ١٩٦٧.

قال لى حمدى منصور فى التليفون " ليس عليك سوى أن تتجه إلى محطة فيكتوريا للسكك الحديدية يوم الخميس، وستجد فوجا من الممرضات القادمات إلى واموث، ومعهن صديقتى فيرجينيا، وهى ستصبحك حتى باب البيت هنا بعد ثلاث ساعات فى القطار.

وفى الموعد الذى حدده كنت فى محطة فيكتوريا للسكك الحديدية، وهى المحطة التى تكاد تكون قلب انجلترا كلها. فمنها وإليها تسير القطارات إلى معظم أرجاء الجزر البريطانية، وكان على رصيف المحطة فوج من الجميلات

اللاتى يرتدين ملابس التمريض، وسألت عن فرجينيا، فجاءت لتحيينى، وهى تقول " لم أستطع أن أضع على وجهى مساحيق التجميل ، على الرغم من أن حمدى نبهنى إلى أنى يجب ألا أقابل أحدا من أهله أو أصدقائه دون مساحيق التجميل، لأنكم أهل الشرق تفضلون المرأة التى "على سنجة عشرة" وقالت الكلمات الثلاث الأخيرة بالعربية. وقلت لها "أنت جميلة بالحد الذى لن تضيف لك مساحيق التجميل أى شىء".

وعرفت منها أنها وجهت الدعوة إلى الكثير من زميلاتها لزيارة المستشفى الذى يعمل فيه د. حمدى ، لعل بعضهن يجدن الرغبة فى العمل هناك، حيث تهرب الكثيرات من العمل فى مستشفى بعيد، وفى مدينة لها أخلاق القرى الصغيرة، وليس فيها أى وسيلة للترفيه، كما أن مستشفى وايموث يعالج فى الأغلب الأعم الكثير من المساجين المحكوم عليهم بأحكام طويلة.

وحدث أكثر من مرة أن اعتدى أكثر من مسجون مريض على أكثر من ممرضة، وفسر حمدى هذا الأمر بأن الممرضة فى انجلترا تكون بنت طبقة عالية، وتحب أن تكتشف رجولة المجرم ثم تدعى من بعد ذلك أنه اغتصبها، ورفضت فرجينيا تلك الفكرة وقلت أنا لها بصوت عال "صحبة الجميلات أمر جميل لمدة ثلاث ساعات"، كما أنها تجربة مثيرة أن تجتمع بنات الذوات من أسر انجلترا العريقة لخدمة أعتى المجرمين فى انجلترا كلها".

ولابد أن أعترف بأن جمال فرجينيا كان يفوق الأمر الطبيعى ، فهى مزيج من أفا جاردنر ولانا تيرنر، ولا أجد شبيها لها من نجمات هذا الزمان، ولكنى أستطيع أن أقول إن فرجينا جمعت بين رشاقة الرغبة التى تطفو على كل ما يحيط بها، وأنها فى آن واحد تبدو كقصيدة من شعر حار، ويمكن أن تقول لنفسك " لقد جمعت فرجينيا كل ما فى العالم من أنوثة ثم اختارت لنفسها الرقيق والحاد من كل ما فى الأنوثة، وألقت بالفائض لبقية نساء الأرض.

جلست فرجينيا إلى جانبى تحكى بهدوء مشوب بالخوف والقلق وكلماتها تشبه الشكاوى من صديقى حمدى منصور الذى لم يعرض عليها الزواج حتى الآن وهى مصرة على أن تتزوجه، لأنها لم تعرف رجلا من قبل فى مثل عطائه العاطفى، ولكنه يحمل فى رأسه صورة والدته التى سترفض بالتأكيد أن يتزوج ممرضة، فمهنة التمريض فى مصر خلال المائة عام السابقة على ثورة يوليو لم تدخلها إلا الفقيرات المحتاجات إلى العمل، ولذلك كانت مصر تستورد الممرضات من الحبشة أو من جنوب السودان، ولم تدخل مهنة التمريض بنات الطبقة المتوسطة والراقية إلا بعد أن فتحت الثورة الباب لتأسس كلية للتمريض فى الإسكندريةوالقاهرة.

كنت مندهشا، لأن فرجينيا الإنجليزية صارت تحدثنى عن مشكلات مصرية بعد ربع ساعة من ركوبنا القاطر المتجه إلى قرية وايموث.

قالت لى : "فى انجلترا لا تدرس التمريض إلا بنات الطبقة الراقبة، فوالدى سير إنجليزى ونحن نملك ضيعة تضم العديد من القرى، أقول لك ذلك لأنك تعلم مثلى أن البشر فى أيامنا هذه ينظرون إلى جذور بعضهم البعض، بعد أن أفقدهم التقدم التكنولوجى أى ثقة فى أنفسهم ف "ابن من أنت؟" صارت قضية مهمة، وبها يتحدد طريقة مأكلك، وأسلوبك فى الكلام. وكيف يمكن أن تتعامل مع غيرك.

وقد تلتقى بمن هم أغنى منك، ولكنك تستطيع أن تكتشف جذورهم المتواضعة من أسلوب الكلام أو من طريقة التعبير عن النفس أو حتى من السير بحذاء لم يتم تلميعه، أو من تسريحة شعر غير ملائمة لقد قدم الناس فى زماننا الاستقالة من التلقائية التى عاشوا فى رحابها بعد الحرب العالمية الثانية، وضاعت أفكار العدالة والاشتراكية، وكل ما يجعل الناس يحلمون بالمساواة.

وصارت الفتارين هى التى تصنع الانطباع الأول للمرأة أو الرجل، ثم يبدأ أى منهما فى اكتشاف حقيقة الشخص الآخر. صار البشر مقلدين لبعضهم على حسب الموضات، ويمكن أن تجد بشرا بعدد أسماء بيوت الأزياء.

كنت أضحك لكلماتها، لأن ما تقوله هو الحق والصدق، ففى إنجلترا كما فى مصر كما فى الولايات المتحدة، هناك أناقة مبالغ فيها تجدها عند أصحاب المهن غير اللائقة. وكثيرا ما كنت أرى ما قالته فرجينيا وهو يتجسد أمامى، فلست أنسى أن واحدا من أشهر المدلسين فى قضايا العمولات كان يرتدى بدلة بمبلغ ثمانية عشر ألف دولار من صناعة سمالتو، بيت الأياء الموجود فى باريس والمغرب فقط. ورأيت واحدة ممن قمن بالتجارة فى الشقق المفروشة، وهى ترتدى تايير من تصميم "إسكادا" وحين سمعت اسم هذا المصمم ظننته اسم محل أطعمة أو نوع من الحلوى.

لحظة وصولنا إلى وايموث كان حمدى فى استقبالنا، ليقول لى "من المؤكد أن فرجينيا قد قلبت رأسك ضدى" قلت بالعربية التى لا تفهمهما فرجينيا" لقد شاهدتك يوم رفضتك هيام وهى بنت زمار فى قريتنا، وسمعت اليوم من تخطبك منى وهى بنت سير إنجليزى.

قال لى : أنت إذا موافق على أن أتزوج من فرجينيا هل ستقنع والدتى بذلك؟. قلت له يومها [illegible] إن والدتك لن [illegible] معكما غرفة النوم ، ولن تعيش معكما طوال الوقت، وأنت قررت أن تهاجر إلى إنجلترا وإذا كنت تحب هذه الإنسانة، فما الذى يمنع؟

عرفت بعد شهور أنه وجه الدعوة لوالدته كى تزوره فى وايموث ، وعادت من هناك وهى غير موافقة على ما فعله، فقد كانت تريد أن تزوجه بنت خالته التى أحبها وهو صغير بعد أن صارت أرملة، ولكنه قال لها "كانت حكاية وانتهت ثم إن زوجها مات بين يدى".

ولكن والدة حمدى صارت تسألنى "ولماذا يعيش فى هذا البلد الصغير ؟ ولا يعيش فى لندن، خصوصا أن زوجته غنية وبنت أصول؟ وكنت أقول لوالدته "ولماذا لم تسأليه أنت هذا السؤال؟ قالت "أنت تعلم أن رأسه راكبة شمال ، قال لى إنه يحب أن يعالج المساجين لأنهم فى رأيه أفضل كثيرا من الذين يتحركون فى الشوارع، لأن فى قلب كل إنسان جريمة ارتكبها وأفلت بها، ولكن المجرم أكثر شرفا من غيره، لأنه حين ارتكب جريمته تحمل نتيجتها وعقابها. وأضاف حمدى لوالدته "أنا يا أمى لا أحب أن أبيع الطب فى السوبر ماركت". قالت لى أمه "أنا حفظت كلامه حتى أقوله لأصدقائه ليعرفوا أن صاحبهم مجنون، لأنه لا يوجد طب يباع فى السوبر ماركت" وكنت أضحك مع والدته وأقول لها " إنه يحب أن يعالج الناس دون أن يدفعوا دم قلوبهم، وهذا هو نظام العلاج عند الإنجليز قبل أن تتدخل مارجريت تاتشر وتخفض من نسبة مشاركة الدولة فى التأمين الصحى.

هاهو الآن فى زيارة لمارينا، ولم يكن من المقبول أن تمر ثلاثون عاما على آخر لقاء لنا دون أن نلتقى يوميا، حيث يقيم فى شاليه يملكه شقيقه المحامى الكبير، ومعه فرجينيا التى أكدت لى أنها كانت تبحث عنى طوال الوقت، وقالت لى "منذ نزلت مصر وأنا أقول لحمدى: لماذا لا تتصل بصديقك الصحفى؟". وأضافت أنها تحمل لى تذكار تشجيعى على الزواج منها. وإن كانت أمه لا تغفر لى ذلك، لأنه لو كان قد تزوج من مصرية لعاد إلى هنا على حد كلمات والدته.

هذا ما قالته لى فرجينيا التى صارت زوجة صديقى الطبيب حمدى منصور الجراح الشهير. كانا يسيران معى ، وحمدى يحتضنها قائلا لى : هذه الحسناء ابنة السير الإنجليزى، وعواطفها أكثر ثراء من كل كنوز الأرض".

سألته : ألا يوجد ما تندم عليه؟

أجابنى : إن أردت الحق أنا نادم لأن هيام رفضت الزواج منى، وأنها أجهضت نفسها من ابننا.

سألت فرجينيا بوضوح : لماذا لم تنجبا ؟

قالت : اسأل صديقك ، كان يقول لى دائما "لا أريد أن أنجب ابنا ينتمى لمجتمع الإنجليز لأنه سيقف بشكل أو بآخر ضد المجتمع الذى نشأت أنا فيه.

قال حمدى : تصور لو أننا أنجبنا ولدا وجاءت حرب مثل حرب إنجلترا وأمريكا على العراق، وكان ابنى من بين صفوف القوات الأجنبية التى توجد الآن فى البصرة، ماذا سيكون موقفى؟ وأين أضع مشاعرى؟

ولم أجب.

سألتنى فرجينيا "هل تعرف طريق هيام الممرضة التى رفضت الزواج من حمدى؟

ضحكت وأنا أقول لها: هل اعترف لك بكل تاريخه ؟ وهل تريدين أن تزوجيها له الآن بعد أن بلغ الستين ؟

قالت : لا ولكنى أريد أن أعرف كيف استطاعت أن تملك شجاعة رفض الدخول إلى قفص حنان هذا الرجل . إنه حنون جدا وحائر جدا.

ولم أقل لها إن هيام تزوجت من ثرى شرقى يتاجر فى الخيول والسلاح وأن ابنها الكبير اسمه حمدى.

٣١- آلام الشاب فرتر

وقع فرتر -وهو شاب مثقف حساس يعيش حياة بسيطة فى الريف- فى هوى إبنة عمومته شارلوت منذ رآها لأول مرة فى إطار عائلى وهى تلعب دور الأم لمن يحيطون بها من أطفال.

فتحت الباب وإذ بى أرى أمامى أروع منظر شهدته فى حياتى ستة أطفال تراوحت أعمارهم بين الثانية والحادية عشرة، يجرون فى الردهة ليحيطوا بفتاة متوسطة الطول، جميلة الشكل، ترتدى ثوبا أبيض بسيطاً وشيت أطرافه بأشرطة حمراء. وكانت تمسك رغيفاً تقتطع منه شرائح للصغار، وفقا لأعمارهم وطاقتهم على الأكل . وكانت تؤدى مهمتها فى إشراق وعطف، واعتذرت الفتاة فى لطف عما كبدتنى من عناء الحضور لدعوتها، فأحسست بأن مظهرها وصوتها وتصرفاتها قد استولت على نفسى .. وقبل أن أفيق إلي نفسى كانت قد هرعت إلى حجرتها لتأخذ قفازيها ومروحتها».

وفرتر يعرف أن شارلوت مخطوبة إلى شاب يدعى ألبرت وهو شاب متزن عاقل كثيراً ما يلوم فرتر على سلوكه الرومانتيكى المسرف وأفكاره الخارجة عن السنن الاجتماعية المتعارف عليها ولا ينكر فرتر أن ألبرت شاب نبيل الخلق يبعث على الاحترام فهو يكتب فى إحدى رسائله إلى صديق من أعز أصدقائه -يدعى فليهم- قائلا :

"وصل ألبرتر، فحق علىّ أن أرحل. إنَ خطيبها هنا يافيلهم شاب لطيف محترم لا يملك المرء إلا أن يحبه. ومن حسن حظى أننى لم أحضر لقاءهما وإلا لكان قلبى قد تحطم. ثم إنه محتشم لم يقبلها قط فى حضورى، ولتجزه السماء عن هذا ؟ ولابد لى من أن أحبه لما يبديه من احترام لى ، وإن كنت أظننى مدينا بهذا إلى شارلوت ، فإن للنساء فنا رقيقا فى علاج هذه الأمور.

إنهن لا يستطعن دائما أن يبقين غريمين على وفاق، ولكنهن إذا نجحن فى ذلك كن الرابحات الوحيدات ؟".

وفى أواخر اكتوبر يغادر فرتر المقاطعة التى يعيش فيها لكى يشتغل سكرتيرا لسفير لا يميل إليه، ولكنه يشرع -عند مقدم شهر يناير- فى الكتابة إلى شارلوت. وعندما يعرف أنه قد تم زواجها من ألبرت يكتب إلى كليهما ثم يستقيل من وظيفته ليعيش بالقرب من بيتهما.

ويشعر بأن فى قلبه «فراغا مخيفاً»، ومع حلول شهر اكتوبر يتأمل أى نوع من «الفراغ» سيكون موته خليقا أن يحدثه فى عالم الأسرة ويقر بأنه سبب تعاسته الشخصية. ويعكس المنظر الطبيعى فى نوفمبر (ففصول السنة تلعب دوراً مهماً فى تقرير الحالة النفسية لشخصيات الرواية) شعوره بالتشتت وفقدانه القدرة على التركيز . ويلتقى برجل مجنون ثم يعرف - فيما بعد- من ألبرت إنه إنما جن غراماً بشارلوت.

ويؤنب ألبرت زوجته على علاقتها بفرتر (رغم ثقته من براءتها) حيث إنها خليقة أن تسىء إلى سمعتها باعتبارها سيدة متزوجة. وتقرر شارلوت، من جانبها أن تضع مسافة بينها وبين فرتر وإن كانت تشفق عليه. إنها توصيه بتوخى الحكمة والتعقل وأن يبحث لنفسه عن امرأة أخرى تسعده، فيعود إلى بيته ويكتب إليها :

" لقد انتهى كل شىء.. وقد قررت أن أموت". ويعثر على هذا الخطاب فى غرفته، بعد موته، ويسافر ألبرت فى بعض أعماله فتجلس شارلوت أسفه، كاسفة البال، لأن فرتر لا يستطيع أن يقنع بأن يكون مجرد «أخ» لها. لقد كان غيابه يهدد بأن يفتح فى أعماقها فراغا يستحيل أن يملأه شىء وعلى غير توقع يحضر فرتر لزيارتها. وبعينين غارقتين فى الدموع يقرأ لها ترجمته لبعض أشعار الحب. وحين يفرغ من القراءة يرتمى عند قدميها، وتتلامس وجناتهما [illegible]

ولكنها تصيح به «فرتر!» وقد استيقظ فيها صوت الفضيلة. ويظل فرتر ممداً عند قدميها نصف ساعة ثم يثوب إلى رشده فيودعها ويخرج من البيت.

أهاجت الكلمات أشجانه فارتمى على قدمى شارلوت، وأمسك بيديها يلصقهما بجبهته وعينيه وسرى إلى نفسها إيحاء بما اعتزم فضمت يديه إلى صدرها، ومالت عليه وقد ثارت فى نفسها أعمق آيات الحنان. ومست وجنتها الدافئة وجنته فلم يعودا يريان شيئاً وضمها بين ذراعيه، وشدها إلى صدره، وأخذ يغرق شفتيها المرتجفتين بقبلاته، وصاحت بصوت واهن «فرتر!» ونهضت شارلوت فى أسى مضطرب وهتفت بصوت اختلط فيه الحب بالإباء: هذه آخر مرة يافرتر! لا يجب أن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم !» ولاذت بالحجرة المجاورة فأوصدت بابها دونها، ووقف فرتر برهبة باسطا يديه ، يناديها فى ضراعة ثم هتف أخيراً وهو ينتزع نفسه من المكان: «وداعا ياشرلوت، وداعاً إلى الأبد».

ويتجه فرتر إلى بوابة البلدة فيتسلق قمة جبل عال (معلقا عليها قبعته) بين الريح والمطر ثم يعود إلى بيته. وفى الصباح يتم خطابه إلى شارلوت وفيه يعيد تأكيد أنه ينوى الانتحار. ويسأل «ألبرا» أن يعيره مسدسه بزعم أنه سيقوم برحلة قد يحتاج إليها فيها.

ويكتب رسالة أخرى يودع فيها صديقه فيلهم، ورسالة إلى ألبرت يوصيه فيها بأن يسعد ذلك الملاك. ثم يطلق على نفسه الرصاصة، ويلفظ آخر أنفاسه بعد ساعات قليلة، ولا يتمكن ألبرت من حضور جنازته، بينما ترتمى شارلوت فى هاوية القنوط، ويحمل بعض العمال جثمانه إلى قبره، ولا يحضر أى كاهن مراسيم دفنه حيث أن الكنيسة لا تعترف بمن يموت منتحراً.

٣٠- المجهـول

لماذا تعلقت به عيناه دون غيره من المارة فى هذا الشارع المكتظ وقت الذروة. كيف التقطته عيناه من بين عشرات الوجوه التى كانت تمر عرضاً بالطريق.. وظلت نظرته متعلقة بوجهه المتميز وهو مشدود إليه بقوى خفية تدفعه دفعاً إلى التطلع إلى وجهه، ولشد ما كانت دهشته، عندما لقى هذا الرجل يرمقه بنظرة ثاقبة، متفحصة من بعيد، وعندما التقيا وجها لوجه رفع الرجل يده محييا، فما كان من أحمد مجيب إلا أن رد عليه التحية وهو بين الشك واليقين بمعرفته.

– متى رأى هذا الرجل ...

سؤال ظل يلاحقه ويلح عليه. حاول أن يتذكر .. متى رأى هذا الرجل ، وأين؟. استعرض كل الوجوه التى يعرفها دون جدوى.. لم تسعفه ذاكرته للتعرف عليه.. هناك إحساس عميق بداخله يؤكد له أنه رأى هذا الرجل من قبل ..!، أحس بسخف عجيب عندما وجد نفسه كلما سار بالطريق يتطلع إلى وجوه المارة ظنا منه أنه سيراه .. إنه يتذكر ملامحه جيداً .. طويل القامة .. مهيب الطلعة .. أدعج العينين .. يتوج رأسه شعره الأبيض المترسل إلى الخلف .. ما وراء هذا الرجل ؟؟ هل يعرفه أو أن الأمر مجرد تشابه بين اثنين تقابلا بالصدفة والتبس الأمر عليهما وظن كل واحد منهما أنه يعرف الآخر وهذا مجرد احتمال .. لكنه رأى فيما يرى النائم حلماً.

رأى الرجل يمسكه من كتفيه .. يهزه فى عنف .. ينهره.. يصيح فيه بصوت عميق.

– لماذا تبحث عنى .. ألا تعرفنى ؟.

استيقظ من نومه مذعوراً.. ماذا وراء هذا الرجل ؟.. لابد وأن ثمة شيئاً هناك .. توترت أعصابه . وراح كلما سار بالطريق يتطلع إلى وجوه المارة .. قتل

نفسه بحثا حتى أعياه البحث دون جدوى .. كأنه سراباً.. وعندما أعيته المحاولة فى البحث استسلم للواقع.. ربما ينساه .. وليترك هذا الأمر للأيام.

انشغل بعلمه وكاد أن ينسى .. وإن كانت صورة الرجل تطل عليه وتظهر من حين لآخر .. ويوماً كان يسير وقد نسيه تماماً.. لكنه رأى الرجل يقف من بعيد.. وما إن وقعت عيناه عليه راح الرجل يلوح له بيده محييا ثم أدار ظهره ومضى بخطوات متسعة .. تابعه أحمد مجيب محاولاً اللحاق به فى عزم أكيد .. ظل يتابعه وسط الزحام لكنه لم يلحق بخطواته .. غاب عن عينيه ولم يعثر له على أثر .. ضاع وسط الزحام.

تبا لك يا رجل.

هذه الرؤى التى رأها.. وظهور هذا الرجل للمرة الثانية متعمداً لا يمكن أن تكون وليدة الصدفة .. إنه يقصده هو بالذات .. لماذا؟.. كأنه لعنة سار هائما فى الطرقات .. أصابه التوتر وأصبح قلقاً يثور لأتفه الأسباب .. وبينما كان سائراً وجد لافتة قرأها .. عصام البنا .. طبيب أمراض نفسية .. لست مريضاً.. ماذا يضيره لو صعد إليه ويفضى له بتلك الهموم التى أورثها لها هذا الرجل.

راح يسرد للطبيب حكايته بإسهاب .. كان متوتراً وسرعان ما أذابت ابتسامة الطبيب توتره وهو مستلقى تماما.

راح الطبيب يدون ملاحظاته ثم سأله

– متى رأيت هذا الرجل ؟

– منذ ثلاثة شهور.

– ألا تحس أنه قريب الشبه من أحد أقاربك ؟

شرد مجيب بذهنه بعيداً.. انتفض واقفا وهو يصيح

- يا الله .. إنه قريب الشبه من أبى.

قال الطبيب وقد أحس أنه يلتقط الخيط الأول.

- وماذا عن أبيك ؟

- أبى مات وأنا طفل صغير.

- هل تذكر يوم موته ؟

- كيف أنساه .. إنه يوم الحادثة ؟.

قال مستفسراً :

- أية حادثة ؟..

- مات أبى تحت عجلات اللورى وسره معه .. يقولون إنه كان يجرى فى عرض الطريق وكأن أحداً يطارده .. فصدمه اللورى.

- ولماذا كان يجرى ؟..

أجاب مجيب فى تأثر شديد :

- هذا السؤال طالما عذبنى، وظل يطاردنى .. حتى أن البعض احتار فيه لأن أبى على ما أذكر كان رجلاً متزنا، رابط الجأش معتد النفس .. متئد الخطوات .

سأله الطبيب مستفسراً :

- أتذكر تاريخ موته ؟

- أحفظه عن ظهر قلب .. إنه يوم لن أنساه .. السابع من نوفمبر عام (....) .. يوم الحادثة التى أودت بحياته.

دون الطبيب ملاحظاته .. انتهت الجلسة .. كتب روشته بها بعض العقاقير المهدئة .. وضرب له موعداً آخر.

هتف مجيب قائلاً :

- إنها حقا مفارقة عجيبة .. لقد قابلت هذا الرجل فى السابع من نوفمبر.. نفس الشهر واليوم الذى مات فيه أبى .. وإن اختلف العام .. فسر لى أنت ذلك ما معنى هذه المفارقة خبرنى عن حالتى تلك.

أجابه الطبيب بابتسامة عريضة :

- المسألة ليست خطيرة .. قد يكون هذا الرجل مخبولاً ومختل عقلياً، وقد يفعل ذلك مع الآخرين .. لكنك يا أستاذ مجيب .. جعلته يأخذ حيزاً كبيراً من تفكيرك.. فاختزنه عقلك الباطن، وعاش معك فى أحلام اليقظة لذلك تراه فى رؤياك.

- المسألة بسيطة جداً .. وهذا احتمال وارد.

انصرف مجيب من العيادة فهتف الطبيب وهو يشد على يده قائلا :

- لنا لقاء آخر.

أطرق مجيب برأسه فى استسلام فلاحق الطبيب قائلاً :

- صدقنى .. المسألة بسيطة جدا.

تبا لك أيها الطبيب .. بماذا تفيدنى تلك العقاقير.. على أية حال إننى قد ارتحت بعض الشىء بإفضائى إليك .. وإلا لمن كنت أحكى هذا الذى حدث .. وإن حكيت لأحد يقينى أنه سيسخر منى .. اللعنة على هذا الرجل.

بات يترقب رؤيته .. أصابه شعور بالخوف والتردد فى كل شىء .. توترت أعصابه .. أدمن العقاقير المهدئة.. أصابه الملل من كل ما حوله .. أهمل نفسه وأطلق لحيته غير مهذبة .. ظهر على أديم وجهه النتوء .. كل ما يميز وجهه عينان بارزتان تحملقان فى اللا شىء تلمعان ببريق أقرب إلى الجنون .. كانت

نظرته حائرة متوثبة إلى شيء لا يستطيع تحديده .. ليته يرى هذا الرجل .. خارت قواه واضمحل عوده وانبرى .. أهمل عمله وكل ما حوله حتى كاد ينسى ذاته .. ولم يعد يذكر هذا الرجل إلا فيما ندر.. لكنه أصبح إنسانا آخر .. يسير فى الطريق هائماً على وجهه غير عابئ بأى شيء من حوله.

بينما كان يعبر الطريق سائراً.. أغلقت إشارة المرور.. وراحت السيارات تنهب الأرض .. وفى الجانب الآخر رمى مجيب ببصره .. فإذا به يرى الرجل في الجانب المقابل كأنه ينتظر أن تفتح إشارة المرور .. وجده ينظر إليه دون غيره بنظرة ثاقبة متفحصة، وقد علت على شفتيه ابتسامة ساخرة.. ثم ما لبث أن رفع يده مجيباً ثم أدار ظهره وقد اتخذ طريقا آخر .. هاج مجيب وماج ، وصاح بأعلي صوته الذى اختفى صداه وسط ضجيج السيارات.

- انتظرنى يا رجل .

التفت الرجل خلفه بنفس الابتسامة الساخرة ثم مضى فى طريقه .. بعدها فتحت إشارة المرور .. انطلق مجيب خلفه جرياً فى جنون حتى قاربه .. وقبل أن يلحق به انحنى الرجل فى إتجاه آخر وتابعه مجيب مندفعاً فقابله اللورى.. صدمه ورمى به فى عرض الطريق.

صاح الناس :

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

هرع الرجل نحوه وقد انكفأ من فوقه .. شخص مجيب بصره نحوه ثم رفع ذراعه مشيراً إليه قائلا فى حشرجة الموتى :

- من أنت .. هل تعرفنى ؟!

ثم هوت الذراع تعلن النهاية.

صاح الناس .

- لا حول الله[1] .. مات.

نهض الرجل من جانبه ومضى فى طريقه .. استوقفه أحد الناس من الجموع التى ألتفت حول مجيب .. سأله فى فضول :

- أتعرفه ؟!

أجابه وهو يمرق كالسهم دون أن يتوقف.

- لا .. هو الذى يعرفنى ..

٣١- قصة غرام

غربى فى أجواء شرقية !

هذه رواية مكتوبة على شكل رسائل متبادلة بين كاتبها بيير لوتى وعدد من زملائه الضباط ومعارفه الأتراك وشقيقته تتخللها يوميات مكتوبة بقلم لوتى من سالونيك والقسطنطينية واسطنبول أول من على ظهر السفينة الحربية التى يعمل بها ضابطا، فى عرض البحر ..

بطلا الرواية - كما يوضح أحمد فهمى العمروسى فى تقديمه لها - ضابط من ضباط البحرية الإنجليزية جاء على ظهر إحدى البوارج التى بعثت بها انجلترا إلى ميناء سالونيك لتهديد تركيا وحملها على تنفيذ رغبات الدول الأوربية إثر حادث قتل بعض قناصل تلك الدول.

بدأت قصة الحب - كما يقول أحمد شوقى فى بعض أشعاره - بنظرة . ففى عصر يوم من أيام الرياح نزل لوتى إلى المدينة فلمح خلف بعض القضبان

---

(١) الصحيح أن يقال لا حول ولا قوة إلا بالله .

الحديدية القريبة منه الجزء الأعلى لرأس شابة ذات عينين خضراوين يعلوهما حاجبان أسمران تقاربا حتى كادا يلتقيان وقد جمعت العينان فى تطلعهما بين الحيوية والسذاجة فكأنها نظرات طفل غض مازال فى ميعة صباه.

كانت هذه الفتاة هى آزياديه.

أسرته هاتان العينان الخضراوان ولكن جال بخاطره استحالة الاتصال بينه وبين الفتاة ، إذ هو مرتبط - من ناحية - بعمله على ظهر السفينة. وهى، حتى بافتراض أنها تبادله شعوره، تعيش تحت رقابة شديدة، وراء قضبان حديدية فى حريم تركى يدعى عابدين أفندى إلى جانب غيرها من الزوجات والمحظيات.

لكن كوتى تمكن - بمساعدة بعض الأتراك الذين أغدق عليهم العطاء - من جمع معلومات عنها وتعقبها. كانت قد أتت تسكن مع ثلاث نسوة أخريات من نساء سيدها فى بيت ريفى واقع على طريق موناستير، وهناك كانت تقل عليها الرقابة.

وقد بادلته النظر والابتسام فلم يكن يمنعه من التصال بها إلا وجود زوجها وقضبان نافذتها الحديدية. فكان يقضى الليالى فى انتظار اللحظة التى يستطيع فيها لمس ذراعيها من خلال القضبان وتقبيل يديها البيضاوين المزينتين بخواتم الشرق.

وتمكنت من أن تغافل الرقباء فحضرت إليه فى بيته. وعرف منها أنها كانت صبية شركسية جاءت إلى القسطنطينية، وقد باعها أحد التجار إلى سيدها الذى رباها ثم وهبها لأبيه، وكانت وهى فى السادسة من عمرها بارعة الجمال فاشتراها سيدها الحالى وكان قد شاهدها فى اسطنبول وأحضرها معه إلى بيته فى سالونيك.

وعلقت آزديادية بلوتى تعلقا رومانتيكيا بالغا. واقترحت عليه أن ينتحرا معا بالقاء نفسيهما فى البحر حتى لا يفترقا لا فى الحياة ولا فى الموت ، وكأنما كان اقتراحها هذا إرهاصا بالمأساة التى تنتهى بها القصة .

وقامت بينهما علاقة غرامية حارة فكانا يمارسان الحب فى بيته أو على ظهر قارب ومن أجلها تعلم اللغة التركية، وأصبح يلبس الزى الألبانى، وسمى نفسه عارف أفندى.

ويسأل لوتى آزياديه يوما : ماذا تفلعين عند سيدك ؟ وفيم تقضين ساعات نهارك الطويلة فى الحريم؟

فتجيبه : أقضيه فى الضجر وفى التفكير فيك يالوتى فأتأمل صورتك واتلهى بأشياء صغيرة مختلفة أحملها من هنا لأنشغل بها هناك.

ويحلل لوتى قصة حبهما فيقول :

«عندما أتأمل فى قصة حياتنا أجدها فريدة حقا. فلقد ارتديت لباس الأتراك فى سالونيك لأبادل الحب غادة تركية تحت نافذة مسكنها مما ليس له سابقة فى مدونات تركيا.. وقد كان ذلك كافيا لأن توردنى عين ناقدة أو بصيرة نافذة موارد البوار.. وكل هذا يا إلهى كان أول الأمر للتغلب على سأم العيش ومباهاة الرفاق وتحدى الحياة.

أما هى فإن الفضول وقلق النفس كانا العاطفتين اللتين أول ما أسيقظنا فى قلبها.

وقد دعاها الفضول إلى التطلع بعينها الواسعتين من بين قضبان نافذتها ثم تحول الفضول دهشة من ذلك الغريب الذى بدل لباسه بلباس الألبانيين وراح يقف تحت شرفتها، وانقلبت الدهشة لهفه إذ فكرت أنه لابد أن يكون قد أحبها كثيرا وهى الجارية المشتراة حتى بلغ به الأمر إلى أن يخاطر برأسه لمجرد رؤيتها».

وصدرت الأوامر لسفينة لوتى بمغادرة اسطنبول والعودة إلى ميناء سوثابتون فى إنجلترا. وانقض عليه هذا الأمر انقضاض الصاعقة فبدأ يجمع حاجياته ويتأهب للسفر. وعاهد آزياديه على العودة إليها فى أقرب فرصة ممكنة ولكنها أقسمت له إنها ستموت إذا فارقها فاعتقد أن كلامها من باب الغلو والمبالغة ثم ودعها ومضى ضمن جنود الأسطول.

ويلخص أحمد فهمى العمروسى - الذى كان عميدا لمعهد التربطة سابقا- خلاصة هذه القصة فيقول : «ثم أتيحت له العودة فأبلغ أن حبيبته برت بقسمها فماتت ولم تكن هازلة فيما قررت يوم وداعه فحزن عليها أشد الحزن ، وراح يوازن بين وفاتها ومروءته فلم يجد لهذا الوفاء وزنا يعادله سوى التضحية بحياته والمغامرة فى سبيل حبها فتطوع فى عداد الحملة التركية لمحاربة روسيا، وقد جاهد جهاد الجندى المخلص المستميت إلى أن لقى حتفه فى موقعه قارص».

ويقرأ الناس فى «جريدة الحوادث» وهى صحيفة اسطنبول الخبر التالى :

« وجد بين الموتى فى موقعة قارص الأخيرة جثة ضابط شاب من البحرية الانجليزية التحق حديثا بخدمة تركيا تحت اسم عارف أسام أفندى».

وقد دفن مع حماة الإسلام الأبطال عند سفوح كيزيل تيبى فى سهول قره جمير».

٣٢- آخر قضايا النساء

أنا اسمى «صادق الشريف» على أبواب الحياة الجامعية ثانوية عامة فى اللغة الفرنسية، الظروف وحدها تحدد مسارى، مع أنه منذ نعومة أظفارى وأنا عربى رغم أنف الاستعمار. إنجليزى .. فرنساوى.. لغة أولى ولغة ثانية وأهم شيء التفوق. والعنوان محفوظ وزويل، والدى فلاح وأيضا أمى، على فكرة أنا لست من هواة، كتابة المذكرات، لكن هذه قصتى -باختصار- ثمانية عشر عاما أتممتها وأنا فى زحام أيام الامتحانات، يمكن تكون، قصة معظم الشباب .. مع اختلاف فى المضمون .. والمقدرة على التحمل وأيضا التلخلص من المتاعب والصمود لآخر نفس بحرية تامة وبلا ضغوط ، لأن بلدى ، مصر عايشة أجمل حياة ديمقراطية.

كما أن معنى أن أمى تكون فلاحة ووالدى نفس الشيء أنهما يكونان مختصين بشئون القرية .. أبدا. أنا أقصد أنهما بارعان فى كل شيء جميل ومنظم ومدر للربح كل وقتهما فى العمل من أجل تحقيق مستوى معيشى طيب لى ولأخى «نديم» هادىء ووديع وعلى خلق ومتفوق فى دراسته، وبديهى أنه هكذا من أين له عدم التفوق الأب محام ناجح والأم أيضا. والعبد لله .. اللى هو أنا نفس الشيء، على فكرة عائلتى صغيرة العدد، جدتى لأمى وخالة واحدة ، وعم فقط لا غير، أسرة تحب. لأن الترابط فيها عامل مشترك والصراحة من شيمى وأخلاقى وإنكار الذات لا ينافسنى فيه أحد . أما القوة فى اتخاذ القرار، فتلك هى الطامة الكبرى لأننى، حين أقرر، لا أتراجع أبدا.

– صادق موجود ؟

ويتعمد أن يستفسر. ويجاوبه الصوت بغرابة.

– إيه حكايتك ؟!

ويضع سماعة التليفون ويستدير إلى ست الحبايب يجاوب لهفتها بمعابثته الحلوة.

– ما تنسيش إن أنا صادق. (ويربت على كتفيها بسعادة) ويستطرد وذراعه تشير إلى مكتبته.

– مجرد نظرة استحسان تكفيني.

احتضنته بذات الحب، وشعر من خلال هذه الضمة أن عظامه ردت إليها الروح، وسرت دماء دافئة بين أوردته طمأنته، كان منذ دقائق يرتجف، ويغمره اقتناع بأنه مثل خرسانة متهالكة لن يجد منها نفعا أو مأوى. وهى تسكن بداخله، أمله أن يعرف الجميع عما قريب أن البحث عن سكن غدا متفشيا فى كل مكان. وبالرغم من ذلك يسمع عمن يدفع – أكبر منك. تعد فى عمر ابنه الأوسط، رجل أعمال معروف. سوف يشيد لى قصرا. صديق حميم لزوج «ماما».

– وحبنا ؟!!

– مراهقة .. سهرات .. رقص «شعر» «موسيقى» كله كلام فاضى.

– دا رأيك ؟ يا خسارة صدمة كبيرة لأهالينا.

وشعرت والدته بإبحاره بعيدا عنها، فهمت بالتحدث لكنه كان أسرع منها.

– دا تنسيق مبدئى.

قاومت الأم غصة تملأ جوفها وهتفت.

– هو دا صادق حبيبى يموت فى النظافة والنظام موش كده وبس ، دا عقله وتفكيره واتجاهاته سابقة عمره.

ضحك الفتى بسعادة وقال بثقة جميلة :

- يا ماما بلاش مبالغة.

- لو قلت غير كده أظلمك . وأنا ست قانونية ونظرت فى الساعة التى تتصدر مكتبه واستطردت أخبار العربية إيه ؟

- السيد الميكانيكى ! اعتذر لضيق الوقت وقال : مالهاش غير التوكيل.

ربتت علما ظهره بأناملها الرقيقة واستطردت وهى تترك غرفته.

- الموضوع ده يخص والدك أكثر منى . و.. وتدخل والده فى الحال.

- ماما معها حق . سأخصص بعد غد لإصلاح ما تريده وما يريده. نديم، المهم أن يكون يوم الأجازة متنوعا فى الإنجازات ، مشتروات أغراض الأسبوع، إعادة تنسيق المنزل ونظافته مع الحفاظ على وقت زيارة جدتك طعام الغذاء فى النادى . و..

هرولت والدته وأضافت :

- وكل يوم أجازة وأنت طيب.

تدوين الشعر ميسر وسهل طالما كان التطبيق للقواعد المتعارف عليها بلا أخطاء، الشعر فى نظره يساوى تطبيقا للقواعد مع جمال اللغة وفكرة جيدة وموضوع قومى مركز، كل ما فى الأمر أن تكون مستقرا ومهيئا على درجة كبيرة من الوعى والثقافة، ولا يهم بعد ذلك إن كان الشعر عموديا، أو مقاطع ، حديثا أم قديما، لكن :

- قول كلام موزون.

- أنا غلطت فى إيه يا أمى !

- هنا بتلعب بيك.

- إف.

- ما تنفكش.

- تانى ؟!

وهو صغير، عوده والده أن يحترم اللعبة التى من شأنها التسلية وقطع الملل فقط. دون أن تستغرقه وتبتلع وقته، وهو يرفض الاستهانة بالوقت، الذي من شأنه إعلاء حياة المرء، ولذا لم يفكر طويلاً فى اختيار «هنا» لشريك حياتها على رسلها.

- يا برود أعصابك يا أخى ! اغضب. أدخل عيادة طبيب نفسانى.

أرفض المهدئات. أفضل العلاج الطبيعى، وكيف تكون السباحة داخل الذات ذات أثر فعال وتحمى محيط النفس من التلوث.

- لازم تكون قوى.

- فلسفتى أن الخائن مالوش مكان فى قلبى.

- تقدر ؟!!

- أقدر ونص.

كانت بداية معرفته بها فى النادى. أول مرة رآها كانت تجلس بين الأصدقاء والصديقات، ذوى الأعمار المتقاربة، يتحلقون حول منضدة كبيرة ما أن لمحوه بعوده الفارع، ووجهه الأبيض، المشرب بحيوية الشباب الأرجوانية الغضة. حتى يصيحون فى صوت واحد مهللين ومعابثين.

- صادق ، فى نادى الجزيرة ؟!

رد أحدهم بخبث.

لمحته هناء التى يعدونها فيلسوفة الشلة، وسيم جذاب. فارع بلا امتلاء، ويماثلها طولا.

- «طولك ووزنك وعمرك ؟

- ١٧٥ سم، حوالى ٤٨ كيلو، وعمرى ١٧ سنة.

- على فين يا هناء ؟

- أقدم مواصفاتى . أنا مشتركة فى مسابقة ملكة جمال النادى.

- دا كلام فاضى.

- أنت واخد العملية جد كده ليه !! دى تانى مرة تشوفها.

انطلقت واحدة من الصديقات مثل الصاروخ.

- معقول تكون حبيتها؟!

- أرفض التصريح عن خصوصياتى.

- أنت متخلف، بل تعد من العصر الحجرى.

- وانطلق الجميع فى صوت القرن الحادى والعشرين بمثل هذه العقلية!!!

الضآلة حجم. العلوم الرياضية تصرح بذلك، لكن الطول والعرض والفرق بين الأطوال هو النسب، ولذا آثرت أن تبتعد عن المقارنة، بك إنها لا تدرجها أبدا فوق خريطة سلوكياتها، ورغما عنها تجد نفسها كثيراً ما تهفو إليه بشدة إلى مثل أعلى فى الحياة، ولا تجده، بالرغم من أن أباها رجل أعمال كبير ولا أحد يجهله، وأمها تحمل الدكتوراه فى العلوم الرياضية. لكنهما منفصلان ولا تعلم السبب الحقيقى الذى جعل التبعثر يؤثر.. التواجد فى حياة أسرتها، وتذكر جيداً حينما كانت فى السابعة من عمرها وتصحو من نومها على شجارهما وتحاول قدر جهدها أن تعلم السبب دون جدوى.

كانت تلوذ بصدر جدتها لأبيها وأيضا شقيقها إسلام الذى يصغرها بعامين، بحثا عن الأمان، وتزوج والدها بأخرى وأيضا أمها. وأثمر زواجهما شقيقا من أبيها واثنين من أمها ونشأت «هنا» وشقيقها فى كنف جدتهما،

وتعثرت فى دراستها عامين متتاليين حينما كانت فى الصف الثالث الإعدادى، ولم تجهل السبب بل عرفت الأسرة أنها كانت لا تذهب إلى لجنة الامتحان فى يوم علم الاجتماع.

- مثلك الأعلى فى الحياة ؟

- .....

وكانت تنسحب من أمام لجنة الامتحان فى مسابقة اختيار ملكة جمال النادى الذى تنتمى إليه. شعرت لأول وهلة أنها تواجه لجنة امتحان الثانوية العامة التى تسمع عنها قبل التقدم إليها بعام واحد فتصيبها الرجفة ويشملها الصمت.

- أهم أعمال فيكتور هوجو؟

- ...

السيمفونية التاسعة ؟

- شويان.

اسم نبات فى عصر الفراعنة؟

- البانجو .

قطبت هناء ما بين حاجبيها وهى تواجه الاستنكار من لجنة الامتحان، وصاحت بانفعال.

- أنا منسحبة.

والعلم زائر كريم. إذا أحسنت استقباله راح يمنحك «نول»..

- كفاية فلسفة.

- أنت تسمعينى وبس.

- محال. أكون زى ما أنت عاين، منتهى الظلم والاستبعاد !!

وتركض إلى سيارتها، تترك له النادى وجمع الرفاق. ويدوم الخصام أياما. وأحيانا عدة أسابيع، وفى كل مرة يبدأ هو بالصلح.. ولكن إلى متى ؟!

الانفراد بالذات. إن لم يكن مثمرا فعلى الوقت، السلام، حيث تتحد الظنون والهواجس متحولة إلى قوة فتاكة متربصة بالضعفاء، بما لا يتناسب مع منطقه.

فقد عود نفسه منذ الصغر، ألا يقف مكتوف اليدين، يظل فى عمل دءوب وهو فى البيت، يعيد الرونق لحجرته، أو المكتبة الكبيرة التى تتصدر البهو الفسيح. باحثا ومنقبا عن العديد من كتب الشعر القديم كالمنتخب، والعقد الفريد وغيرها من ذخيرة التراث الذى احتفظت به والدته عن أبيها العالم الكبير.

- نسخة من جدك.

- لعل وعسى يا أمى أكون كذلك.

فى إحدى المرات من لقاءاتهما وحال انتهائه من قراءة رواية فى «سبيل التاج»، لكوبى. هرول بها إليها. لكى تقرأها مثله، فصرخت فيه.

- دى آخر مرة تواجهنى بسياسة الأمر الواقع.

وشمله الاخفاق يومها، لكنه تمادى.

- دا هدية لإسلام. أخوك.

وضحكت لحظتها بشكل هستيرى وأضافت :

- إسلام ..!! ربنا ما يكتب عليك. هو أنت ماعرفتش؟

- السجاير ؟؟

- يا ريت، كان العلاج أصبح سهلا وميسرا، لا تتصور زعل ماما عليه.

- ربنا معاكم، المهم قريتى مجلة الأدب؟

وبتقزز باد على ملامحها أجابت :

- أنت عارف موش هوايتى، أكمل بلا حماس.

- أخيرا نشروا قصيدتى.

وفى ذات الضيق قالت :

- موش دا بيت القصيد.

وفى سرعة خاطفة، نهض وانهى لقاءه معها وعاد لبيته، ثم علم بعد ذلك أنها كانت ستخبره بالنبأ اليقين.

أجمل ما فى الوجود. أن يجد المرء ما يشجعه على التمسك بكل حق من حقوقه، حتى ولو كان يسيرا للغاية. المهم مكفول لصاحبه.

- أجمل ما فى حكايتك مع هنا، أنها شحنتك بالحماس تجاه كل شىء.

- يا ماما.. هو أنا عربية علشان أتشحن.

- عربية ؟! دانت أغلى من كنوز الدنيا، نضوج وعقل مرتب وإنكار للذات. موش موجود فى العصر الحالى.

- تعرفى، بافكر أدخل الحقوق وتضحك ومحاسن أبو الوفا، كما لم تضحك من قبل وتؤكد.

- كفاية أنا وأبوك، عايزين تغير.

ربت كتفها بحنان وهمس :

- طمننى قلبك على حبيبك. (اقتحمته بصوتها الساحر) التجاهل صفة كريهة، ليه بتهرب؟ عايز تفهمنى إنك قوى..

- طبعا قوى الشريف صادق يمقت الضعف ولسه ما اتوجدش اللى يقدر يلعب بيه.

نهضت وقالت بخلاعة :

– خوفتنى .. واوعى ثروتك اللى بتنثرها على زى المطر، لأنى كنت باتسلى معاك.

يا ريت تاخد بالك من «نديم» عايزاه نسخة منك.

– ما تخافيش على نديم، أنا شايف أنه أفضل منى.. لكن أنا (زفر فى أسى) وتركها تحملق فى وجهه بخوف، واستدارت تدعو له باجتياز محنته على خير ودون تعقيدات، العجز فى تقديرها أسلوب يبتدعه المقصرون كى لا تلقى بالتبعة عليهم، وهى دائما فى حالة سخاء مع العطاء ولذا لا تجد أبدا باب الدخول إليه مغلقا، بل منفرج النوافذ أيضا، طالما بداخلها إصرار على العمل. وتقترب من ابنها هامسة :

– رح تلاقى اللى تستاهلك.

– انسى يا أمى، اللى يبيع صاحبه فى سوق الموازين ما مايلزمنيش، المهم أنا راجع من النادى مشتاق للقمة من إيديك. هيه عندك أكل إيه؟ نهضت والدته فى الحال وردت :

– ثوانى ياحبيبى.

وفى لمح من البصر أكملت ملابسها والتقطت مفاتيح سيارتها وحقيبتها واحتضنت ذراعه وجذبته برفق من أمام المكتبة وأضافت وهى تغلق الباب وراءها :

– المفاجأة إنى عازماك على السمك اللى بتحبه، أبوك فى سفر قضائى وأخوك مع صاحبه يوم مفتوح خارج البيت مكافأة له على درجاته الحلوة فى امتحان الشهر هيه إيه رأيك . نختار الأسما أولا؟

لم يجاوبها، تلازمه مثل ظله. كل الذى تخشاه هو انكسار الوهج لمعنى الحب الناضج، التخوف يعذبها تنظر لوجهه الملىء بحيوية الشباب الغض فيتضاعف، قلقها عليه من الصدمة فى أول تجربة له وهو قاب قوسين أو أدنى من الحرم الجامعى، اقترحت عليه أن يترك ضجيج القاهرة ويسافر بعيدا بصحبة بعض رفاقه إلى أحد الشواطئ الهادئة، لم يستجب وردد بصوته الهادىء.

- رجائى يا أمى أن تحافظى على مبادئك اللى غرستيها جوايا من صغرى. (اختار اللى يعجبك من القمصان، والألوان اللى تستريح لها، أسلوبها الذى سلكته معه هو وشقيقه الصدق، والحرية.

عادت تنظر إلى قسمات وجهه بعد أن جلسا فى المطعم الذى ذهبا إليه، كان يحدق بعيدا وأمامه شتى الذكريات.

- ذكية جدا، لكن ظروفها صعبة.

- حزينة من أجل شقيقها.

- متسلطة.

قالت والدته بتعمد وهى تراه بعيدا بنظراته.

- أجمل ما فى المطعم ده إنك تجوع أكتر من الروائح الشهية.

نظر إليها نظرات حانية وملامح وجهه الثلجى تماثل ملامح وجهها تماما وأيضا عيناه الملونة التى تعكس ألفا يحير من ينظر اليهما، تحديدا هوية الألوان بالضبط. ويطوف أمامه والده، يحاول أن يعقد، مقارنة بينه وبين والدته. فلم يستطع، كل منهما مثالى فى نظره، ويصيح دائما لعبارات والده التى يعتز بها خاصة حين يسأله مستوضحا وهو فى الثامنة من عمره.

« يعنى إيه كرامة يا بابا ».

« يعنى ما حدش يشتريك ولو بكنوز الدنيا، تمشى رافع رأسك مهما يكون الثمن».

التفت لوالدته كانت مشفقة عليه، وجاء الطعام واندمجا فى تناوله يحفهما الصمت وسرعان ما تناولاه وأعد نفسه للنهوض. فشهقت والدته :

– ياخبر !! بالسرعة دى، طيب استنى الحلو، تناول بعض قطع من المخللات وأخذ يمضغها فى شهية ويردد :

– حضرتك عارفة يا ماما ماليش فى الحلو.

إلى متى يكون الإنسان سلعة؟! ولماذا يباع؟ ومن ذا الذى يشتريه؟ ثم «كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ».

– هنا، اللى بيننا انتهى.

نهض من مقعده فى النادى وهرول خارجا بصدر مستريح لأول مرة منذ أن عرفها، ولا يدرى كيف وصل إلى بيته القريب من النادى، لم يجد أحدا، استلقى على فراشه وحلق بعيدا، حاصره صوت إحدى صديقات «هنا» معلقة على قوله المستقبل يرفض الحظ، وقلدته «المستقبل يرفض الحظ» فيلسوف الشلة سيادته، ملعونة الفلسفة على درجة ونص سوف تدخل الملحق.

– يا جماعة الكلام سابق لأوانه.. احنا لسه فى ثانية ثانوى.

– ثانية ثالثة، المهم نكون مع بعض فى الجامعة مانتفرقش أبدا، أنا عندى أموت وما أتوحدش.

تدخلت هنا :

– ولو ما حصلش إننا نكون مع بعض فى الجامعة ؟

الجميع نظروا إليها بارتياب، وتدخل صادق بتوجس :

– تقصدى إيه يا هنا ؟

– أقصد إن الجامعة موش نهاية المطاف ولا غاية الأمل.

وبذات الريبة اندفع مستفسرا وفى شبه سخرية.

– وإيه يا ترى غاية الأمل ؟!

– الحياة العملية محتاجة للحرفيين، نتعلم صنعة.

– وبعدين ؟

– هو تحقيق يا صادق، (اشعلت سيجارة بعصبية، ونفثت دخانها دون مبالاة واسترسلت بعصبية أشد):

– الحياة فى القرن القادم، القرن الحادى والعشرين فى غنى عن التعقيد، ومحتاجة لمرونة فى كل شىء. وفى الحال صويت إليها نظرات جميع أفراد الشلة، البعض يشعر أنه يكتشفها لأول مرة، والبعض الآخر من أقران الطفولة، بادلها نظرات الدهشة والاستغرب وفى الأعماق تساؤل مرير، ترى أتلك هى الحياة التى ينتظرونها وهم محصنون بالعلم، سلاح القرن، الجديد، عصر الإنترنت والعولمة.

اندفع صادق، مخالفاً لهدوئه المعتاد فى مثل تلك الأمور وبدا صوته محملا بغضب لم يعتده منه أحد، وهو يخبط بكلفه فوق المائدة التى يتحلقونها فى حديقة النادى.

– كلام خطير.. خطير جدا .

نهض وتركهم، ولمحها تشيعه بامتصاص وراحت أعماقه تردد قول والده وكأنه معزوفة شجية (كرامتك فوق كل شىء .. يعنى إيه كرامة يا بابا؟ يعنى حدش يشتريك ولو بكنوز الدنيا .

فى دروس الصبا الأولى وهو يخطو بكل ثقة إلى طور المراهقة كان بجواره، المعلم الأول فى حياته والده. كان دائما يسانده، يقف بجانبه.

– مين مثلك الأعلى ؟

– والدى.

– والدتك ؟

– صديقنى، الكف الحانية فى هجير الصيف، وصقيع الشتاء، وملاذك وقت أن تأخذك القسوة بين فكيها حيث لا ينفع دواء.

– ياه رأيك رح أجدد فى قائمة طعام الأسبوع، مخصوص علشانك.

– ما تشغليش بالك بأمورى يا ست الحبايب، احنا داخلين على عام دراسى، مذاكرة من أول السنة تاريخ فقط لاغير.

– خلاص استقريت علي التخصص قبل الهنا بسنة؟

وعلى غير عادتها معه، رفعت رأسها من فوق أوراق القضية لم تجده أمامه. وشعرت بمدى تخبطها فى الكلام؟ كان يريد دعوتها قبل خروجه، هرولت إليه : فكان أسرع منها فى النزول.

عادت لأوراقها وقد تبددت سكينة روحها. وهى فى أمس الحاجة للوقت لإعداد مذكرة وافية من أجل قضية الشابة التى طالبت والدها بحقها الشرعى من الرعاية.

والحب بعدما تزوج غير أمها بلا أسباب وإلا ستحمله المسئولية عن انحرافها الذى هى منه قاب قوسين أو أدنى.

ولعب القلق بأمن الأم المحامية حتى عاد ابنها الذي طوقها بحنانه معتذرا وهو يتذكر حديثها لأبيه عن تلك القضية التى أمامها وكأنها آخر قضايا النساء.

٣٣- العندليب والوردة

أضلاع هذه القصة ثلاثة : طالب شاب، يدرس الفلسفة والمنطق، واقع فى هوى ابنة مدرس..

والفتاة وهى شابة سطحية التفكير، طائشة اللب، لا تفكر إلا فى الرقص والتنزهات والحفلات والثياب ومغازلة الشبان ..

وأنثى العندليب (العندليبة) وهى تعيش فى شجرة بلوط وتراق قصة الحب هذه وتتعاطف مع الشاب فتقول : ها هنا محب صادق. ليلة بعد ليلة كنت أحكى قصته للنجوم. والآن آراه شعره داكن مثل زهر الزنبق، وشفتاه حمراوان مثل الوردة التى يرغب فيها. ولكن الهوى جعل وجهه مثل العاج الشاحب، والحزن وضع خاتمه على طلعته .

إن الطالب فى مأزق إذ سيقيم الأمير حفلا ليلة الغد، وستكون محبوبته من بين المدعويين ، وإذا أحضر لها وردة حمراء فسترقص معه حتى الفجر.. ولكن ليس فى حديقته وردة حمراء، ولذا سيجلس وحيداً وستتجاهله.

واسترقت العندليبة السمع إلى كلماته هذه فتتأمل قائلة: بالتأكيد الحب شىء رائع، إنه أثمن من الزمرد، وأعز من الأوبال (حجر كريم) الحر فاللآلىء والرمان لا يمكنها ابتياعه ولا هو يعرض فى ساحة السوق. ولا يمكن شراؤه من التجار، أو وزنه بالميزان فى مقابل الذهب.

وتفكر العندليبة فى طريقة تعين بها الشاب على الحصول على وردة حمراء فتنتشر جناحيها البنيين للطيران وتحلق فى الهواء وتطير عبر الحديقة، وتسأل أشجار الورد هناك أن تعطيها وردة حمراء فلا تجد لديها إلا وروداً بيضاء أو صفراء، وأخيرا تقول لها شجرة الورد التى تنمو تحت نافذة الطالب: هناك سبيل واحد للحصول على وردة حمراء ولكنه مخيف إلى درجة أننى لا أجرؤ على أن أبوح لك به.

وتقول لها العندليبة «خبرينى به ، لست بخائفة».

فتقول الشجرة : «إذا أردت وردة حمراء فعليك أن تنبتها من الموسيقا فى ضوء القمر، وتصبغيها بدماء قلبك أنت، عليك أن تغردى لى وصدرك فى مواجهة شوكة، طوال الليل عليك أن تغردى لى ، وأن تنساب دماء حياتك فى عروقى، وتصبح دمائى.

وطبيعى أن ترفض العندليبة ذلك فتقول : «الموت ثمن باهظ للحصول على وردة حمراء، والحياة غالية جداً للجميع».. ولكنها لا تلبث أن تراجع نفسها فتقول: «ومع ذلك فالحب أغلى من الحياة، وماذا يساوى قلب طائر بالمقارنة بقلب إنسان؟»

وتجد العندليبة الطالب راقدا على العشب حيث تركته، وأثر الدموع فى عينيه الجميلتين، فتصبح به، «كن سعيداً ستكون لديك وردتك الحمراء سأجعلها تنبت من الموسيقى فى ضوء القمر، وسأصغها بدماء قلبى.. وكل ما أطلبه منك مقابل ذلك أن تكون محباً صادقاً، لأن الحب أكثر حكمة من الفلسفة مع أنه حكيم، وأعتى من القوة مع أنه عات، اجنحته لهب ملون، وجسده بلون اللهب، وشفاهه حلوة كالعسل، وأنفاسه مثل البخور».

ويرفع الطالب بصره عن العشب وينصت، ولكنه لا يستطيع أن يفهم كلام العندليبة، لأنه لم يكن يعرف إلا الأشياء المكتوبة فى الكتب.

وبعد فترة يغلبه النعاس، وعندما يتألق القمر فى المساء تطير العندليبة إلي شجرة الورد، وتثبت صدرها فى مواجهة غضب، «طيب، أقسم أنك ناكرة الجميل تماما، ويلقى الوردة فى الشارع حيث تسقط فوق البالوعة، وتدوسها عجلات مركبة.

وتقول الفتاة : «ناكرة الجميل ! ما أقول لك ؟ أنت وقح جداً. وعلاوة على ذلك من أنت؟ مجرد طالب، لماذا؟ لا أعتقد أنك تملك حتى حلية فضية لحذائك، مثلما يملك ابن شقيق وصيف الملك.

هكذا تتحطم قصة الحب وتتنكر الفتاة للطالب بينما يتنكر الطالب لمفهوم الحب ذاته. إنه يقول لنفسه وهو يسير مبتعدا: «الحب .. يا له من شيء سخيف، إنه ليس مفيدا نصف فائدة المنطقى لأنه لا يبرهن على شيء ما، وهو دائما ينبئ المرء عن أشياء لا تحدث، ويجعل المرء يعتقد أشياء ليست حقيقة، فى الواقع إنه غير عملى تماما، بينما فى هذا العصر أن تكون عملياً هو أهم شيد، سأعود إلى الفلسفة وأدرس الميتافيزيقا».

ويعود إلى حجرته ويجذب كتاباً مترباً كبيراً ويشرع فى القراءة.

لقد حلت كلمات الفلاسفة المتربة وفلسفات المنفعة محل عواطف القلب المنزهة عن كل غرض.

أنثى العندليب هى وحدها التى كانت تعرف معنى الحب الحقيقى.

٣٤- مرتا سلطانة المغرب (١)

كان الجنرال «جورجو» رفيقا لنابليون الأول فى منفاه بجزيرة «سانت هيلين»، وقد نقل فى مذكراته العبارة الآتية عن لسان الامبراطور العظيم: «كانت سلطانة المغرب فى ذلك الوقت فرنسية من جزيرة كورسيكا، وقد جاء أخوها «فراتشكينى» إلى باريس وعرض على وزير الشؤون الخارجية أن يسافر إلى المغرب ويعمل لمصلحة فرنسا. فاعتقدت فى بادئ الأمر أن فى المسألة نصبا واحتيالا. ولكن الوزير تثبت من الحقيقة فأعطيته ثلاثين ألف فرنك لهذا الغرض. وقد كللت المفاوضات بالنجاح، وبسط امبراطور المغرب حمايته علي الفرنسيين هناك وأسدى إلينا خدمات جليلة. فأرسلت إليه هدايا بنصف مليون فرنك».

هذا ما قاله الامبراطور الفرنسى للقائد الذى عاش معه فى المنفى. فمن هى تلك السلطانة الفرنسية التى تحدث عنها، والتى ولدت مثله فى جزيرة كورسيكا؟

(١) مجلة المصور ٢٨ يوليو ١٩٥٠م.

اسمها «مرتا فراتشكينى» وإسم أبيها «جاك ماريا» وهو من سلالة الكونت فراتشكو كولونا، النبيل الرومانى الذي استوطن جزيرة كورسيكا سنة ١٥٠٠. وقد ولدت مرتا فى ٢ يونيو سنة ١٧٥٠٦ ببلدة كوربارا الصغيرة، الرابضة بين الصخور على سفح جبل يشرف على البحر.

وكان البحر فى ذلك الوقت مسرحا لأعمال القرصنة، يتبارى فيه القراصنة المنطلقون من موانىء ايطاليا وفرنسا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، وكانت جزيرة كورسيكا عرضة لغزوات القراصنة من العرب والبربر، الذين كانوا ينزلون على شواطئها، ويسبون النساء والبنات والشبان، ويبيعونهم فى أسواق الرقيق جريا على العادة المتبعة فى ذلك العهد، حيث لم يكن الرق قد ألغى بعد، وحيث كان الإنسان يستعبد الإنسان، والشعوب تستعبد الشعوب!

وحدث ذات يوم أن هبطت أسرة فراتشكينى من بلدتها إلى شاطئ البحر فى نزهة مسائية، فداهمها القراصنة وخطوفها وحملوها إلى سفينتهم قبل أن يتمكن رجال البلدة من نجدتها، فوقفوا على الشاطئ ينظرون إلى السفينة تبتعد وعليها جاك ماريا وزوجته وولداه فنشنتى وأوغستينو وابنته مرتا الصغيرة.

وانقطعت أخبار الأسرة بضعة أعوام.

وفجأة عاد الرجل والزوجة والولدان إلى كورسيكا، فرحب بهم أهل البلدة، وسألوهم بلهفة عن مصير الطفلة مرتا، فقص عليهم جاك ماريا قصته قال :

«ذهب بنا القراصنة إلى تونس حيث عرضونا للبيع فى سوق الرقيق، فكان من حسن الحظ أن ابتاعنا أحد وكلاء الباى فأقمنا جميعا فى قصره، وعوملنا معاملة حسنة، ولكننا كنا فى عداد الأسرى الأرقاء، نقوم بالأعمال التى يعهد إلينا بها، ونبكى الحرية الغالية والوطن المفقود. ولم يكن بوسعنا أن نفكر فى الهرب لتعذر وسائله ولشدة الرقابة عند منافذ المدينة وعلى شاطئ البحر. فرضخنا لحكم القدر وبتنا ننتظر الخلاص من الرب القادر على كل شيء!

«قضينا فى الأسر والعبودية ثلاثة أعوام، كنت فى خلالها قد انصرفت إلى دراسة اللغة العربية فأتقنتها قراءة وكتابة، وكان الله قد استمع إلى صلواتنا، فقدر لى أن أطلع مصادفة على سر مؤامرة دبرها فريق من الضباط والجنود لاغتيال سيد البلاد، وإسمه سيدى على باى، فأفضيت إليه بما علمت من أخبار المتآمرين، وكنت سببا فى إنقاذ حياته. فأغدق على العطايا والنعم، وأعاد إلى حريتى، وأمر بأن تمهد لى سبل العودة إلى بلادى!

«تنفسنا جميعا الصعداء . وأسرعت إلى الميناء فاستأجرت سفينة صغيرة وخمسة من البحارة، وركبت مع الأسرة وانطلقت بنا السفينة ميممة شطر جزيرتنا المحبوبة! غير أن كارثة جديدة حلت بنا، أشد هولا من الكارثة السابقة.. فقد هاجم القراصنة المغاربة سفينتنا وهى فى عرض البحر، وعلى مرمى النظر من ساحل كورسيكا، فقتلوا رجالها، واضرموا فيها النار، وحملونا نحن إلى سفينتهم، وعادوا بنا إلى بلادهم حيث عرضونا مرة ثانية للبيع فى سوق الرقيق!

«وكنا فى هذه المرة من نصيب أمير مغربى واسع الثراء والجاه، لم يشأ أن يفرق بيننا فاشترى الأسرة كلها دفعة واحدة، كما فعل وكيل الباى من قبل. وهكذا شاءت الأقدار التى أنقذتنا من الأسر والعبودية فى تونس، أن تعيدنا إليهما فى المغرب، قبل أن نتمتع بنسيم الحرية، وبدون أن تكتحل عيوننا برؤية الوطن العزيز!

«ولكننى جعلت أفكر فى الخلاص منذ اللحظة التى وطئت فيها أقدامنا أرض المغرب. وخطر لى فى الحال خاطر وضعته بلا ابطاء موضع التنفيذ : فكتبت رسالة باللغة العربية إلى سلطان المغرب مولاى محمد، رويت له فيها ما حدث لى فى تونس، وكيف أننى أنقذت حياة الباى من كيد المتآمرين، وطلبت أن ينظر إلى وإلى أسرتى التى تصحبنى بعين العطف والتقدير. فرق السلطان لحالنا، وأبدى رغبته فى رؤيتنا فذهبنا إليه فى قصره ومعنا السيد المغربى الذى

اشترانا.. وبعد أن ثبت للسلطان أننى لم أكذب فيما أدعيت، أمر بأن يطلق سراحنا، وأن توضع تحت تصرفنا سفينة من سفنه، تحملنا إلى كورسيكا فى حراسة كافية تضمن سلامتنا، وتمنع وقوعنا فى أسر القراصنة مرة ثالثة!

«غير أن شيئا واحدا نغص علينا ما شعرنا به من فرح واطمئنان: فقد استرعت ابنتى مرتا، وهى اليوم فى الثالثة عشرة من العمر، أنظار السلطان بجمالها الباهر وشبابها الغض، فرغب فى الاحتفاظ بها فى قصره بين نسائه وجواريه، قائلا لى أنه سيجعل منها سيدة البلاد الأولى، ويرفعها إلى أوج العلى والسعادة والهناء!».

سكت جاك ماريا لحظة، وترقرقت الدموع فى عينيه، ثم استطرد قائلا :

«ولهذا أيها المواطنون والأصدقاء، فأنكم تروننى عائدا الآن إليكم مع زوجتى وولدى، محملين بالتحف والأموال والأرزاق. ولكنكم لا ترون معنا تلك الإبنة الحبيبة، التى اضطررنا إلى التخلى عنها هناك، والتى أرجو أن لا تطول غيبتها علنا».

لم تطق الأسرة صبرا على هذا الفراق. وما مرت شهور على عودة جاك ماريا إلى بلدته كوريارا، حتى راح يعد العدة للقيام بمغامرة خطرة لإنقاذ ابنته وانتزاعها من قصر السلطان بمدينة فاس. فجمع حوله فريقا من الجبليين الأشداء، وجهز سفينة أقلعت به وبرفاقه إلى المغرب، فاجتازت البحر بدون أن يلحق بها سوء، وبلغت بالسلامة ساحل المغرب. ولكن الحظ العاثر أراد للكورسيكيين أن يصلوا إلى «رباط الفتح» فى الوقت الذى كان فيه وباء الطاعون متفشيا فى البلاد. فأصيب جاك ماريا بالمرض الذى لا يرحم، ومات فى المدينة فى أول يونيو سنة ١٧٧٠ وهرول رفاقه مسرعين إلى سفينتهم وعادوا بها إلى جزيرتهم خائبين!

ومرت الأعوام بدون أن يتسرب إلى كورسيكا لا كثير ولا قليل من أخبار الفتاة المقيمة فى قصر السلطان مولاى محمد بفاس. وعبثا حاول أخواها وأمها الاتصال بها بوساطة القناصل والتجار وأصحاب السفن. فقطعت الأسرة كل أمل فى لقاء الإبنة التى صار سكان القرية يسمونها «المغربية» فى حين أن المغاربة كانوا يسمونها «الافرنجية».

ولكن مرتا لم تيأس من الاتصال بأهلها وعشيرتها. ففى سنة ١٧٨٦، رست فى ميناء كالفى على مقربة من بلدة كوريارا، قافلة من السفن المغربية نزل منها جماعة من الأمراء العرب، يتبعهم حراس مسلحون، وعبيد يحملون عشرات من الصناديق والأكياس : تلك هى البعثة التى أوفدتها مرتا فراتشكينى «سلطانة المغرب» إلى بلدتها بأمر من زوجها السلطان مولاى محمد بن عبد الله الحسنى!

وعلم سكان جزيرة كورسيكا بما كانوا يجهلون، وقص عليهم رجال البعثة قصة الفتاة التى ملكت قلب مولاهم فأجلسها على العرش، وجعلها موضع ثقته، واتخذها زوجة وصديقة ومستشارة مسموعة الكلمة نافذة الرأى !

ما الذى حدث لمرتا بعد فراقها عن أبيها وأمها وأخويها فى مدينة فاس، وهى بعد فى الثالثة عشرة من العمر؟

لقيت الفتاة حظوة فى عينى السلطان، وما مضت ثلاثة أعوام على دخولها القصر حتى كان مولاى محمد قد بر بوعده لأبويها وأخويها، فجعل منها سيدة النساء فى حرمه، واتخذها زوجة له، وأحلها فى نفسه المنزلة الأولى.

كان مولاى محمد قد خلف أباه مولاى عبد الله على عرش المغرب فى سنة ١٧٥٧، فعرفت البلاد فى أيامه عهد رخاء وطمأنينة وسعة نفوذ. فقد عقد ذلك العاهل العظيم معاهدات صداقة وتعاون مع بعض الدول الأوربية، وجلب إلى عاصمة ملكه لفيفا من الخبراء الأوربيين الذين هجروا بلادهم واتخذوا المغرب

موطنا والإسلام دينا، فاستعان بهم لتحقيق طائفة من الإصلاحات فى جميع مرافق الحياة، وكان يتبادل الرسائل والوفود والهبات مع الملوك والأباطرة والأمراء فى الشرق والغرب، وكانت زوجته السلطانة مرتا تتولى كتابة الرسائل إليهم، والرد على خطاباتهم، وتفضى إلى زوجها بآرائها الصائبة فى كل كبيرة وصغيرة من شؤون الدولة، فازداد إعجابه بها، وتضاعف حبه لها.

وظلت مرتا تحدث السلطان عن أهلها وبلدتها، فأراد فى النهاية أن يستجيب رغباتها، وأمر بأن توفد إلى كورسيكا بعثة تتولى البحث عن أسرة فراتشكينى فى كوريارا، وتأتى بها إلى المغرب إذا شاءت، بعد استئذان لويس السادس عشر ملك فرنسا فى ذلك الوقت.

تلك هى البعثة التى وصلت فى قافلة من السفن المغربية إلى ثغر كالفى، واطلعت سكان الجزيرة على حقيقة ما حدث للطفلة التى افتقدوها منذ أعوام.

وكتبت مرتا إلى ملك فرنسا تنبئه بسفر البعثة إلى كورسيكا فاهتم لويس السادس عشر بالأمر، وبعد بضعة أسابيع من وصول الرسل المغاربة إلى كوريارا، غادروا ميناء كالفى فى سفنهم، وقد انضمت إليها سفن فرنسية أخرى، تحمل أسرة فراتشكينى ورهطا من سكان الجزيرة، إلى بلاد المغرب!

وأمر مولاى محمد بأن تفتح أبواب قصره للوافدين من موطن زوجته المحبوبة، فاصطفت «الحرس الاسود» فى طريق القصر، وحيا الضيوف بقرع الطبول والنفخ بالأبواق، واستقبل السلطان فى أفخم ردهات القصر أم زوجته وأخويها، وكان اللقاء مؤثرا، فألقت مرتا بنفسها بين ذراعى أمها التى لم تعرفها لأول وهلة، واستأذنت زوجها فى أن تقبل الأخوين اللذين افترقت عنهما وهما فى مقتبل العمر. وحلت الأسرة فى جناح من القصر، وقد غمرها الفرح واكتنفتها السعادة!

وكانت السلطانة الفرنسية قد رزقت بنتا سمتها أيضا «مرتا» وعللت النفس بأن ترزق ابنا قد يخلف أباه على العرش. لكن هذا الأمل لم يتحقق، فحصر السلطان وراثة العرش فى ابنه الأكبر يزيد، الذى رزقه من امرأة ايرلندية كان أبوها قد اعتنق الإسلام واستوطن المغرب.

وكان يزيد يكره زوجة أبيه الكورسيكية ويكيد لها فى الخفاء. بل كان يكيد لأبيه ويتآمر عليه ويسعى لانتزاع الملك منه قبل موته. وبلغ الجحود بهذا الابن العاق أن رفع راية العصيان وجمع أنصاره فى الجبال، فقرر مولاى محمد أن يعاقبه على غروره، ويقضى على ثورته فى مهدها، فحشد جيشا من حرسه الخاص وتأهب للزحف بنفسه على مقر الابن الثائر. ولكن يدا خفية دست له السم فى الطعام، فشعر السلطان بأن ساعته قد دنت، ودعا زوجته المختارة إليه، وهمس فى أذنها قائلا :

– مرتا.. لقد أحببتك واخلصت لك بقدر ما أحببتنى وأخلصت لى.. ولك الآن أن تعودى إلى أهلك إذا شئت، أو أن تبقى فى هذا البلد المضياف معززة مكرمة.. ولكن احذرى يزيدا فقد يدس لك السم كما دسه لى. ولا تثقى إلا بولدى سليمان.. الذى أرجو أن ينتقم لى من أخيه، وأن يؤول إليه الملك من بعدى، لكى يحافظ على هذا الوطن قويا منيعا.

وأسلم مولاى محمد بن عبد الله الروح بين أحضان مرتا الفرنسية سلطانة المغرب، فى الحادى عشر من شهر ابريل سنة ١٩٧٠، الموافقة لسنة ١٢٠٤ الهجرية.

تحققت أمنية السلطان الراحل بعد موته، فلم ينعم مولاى يزيد بالملك طويلا، بل مات فى ظروف غامضة، واقتتل أخوته بضعة شهور، وانتهى ذلك الصراع بارتقاء مولاى سليمان بن محمد عرش آبائه وأجداده، وظل جالسا عليه حتى وافاه الأجل فى سنة ١٨٢٢.

وكان هذا السلطان بارا بذكرى أبيه مولاى محمد، وقد نسج على منواله فى السياسة والإدارة، وأحاط زوجة أبيه الفرنسية بمظاهر الإكرام والإجلال، وكانت المسكينة قد فقدت ابنتها الوحيدة، فوجدت بعض العزاء فى معاملة السلطان الجديد لها، واجتماع أعضاء أسرتها حولها بعد طول الفراق.

ومن أعمال هذا السلطان الباهرة، قضاؤه على شرور القرصنة، ودعوته ملوك أوربا إلى التعاون معه فى تأمين السلامة للمسافرين فى البحار. وهو الذى راسل الجنرال نابليون بونابرت، وكتب إليه يقول إن سلطانة المغرب فرنسية مثله من جزيرة كورسيكا، وكان يعنى زوجة أبيه مرتا فراتشكينى، وفى سنة ١٧٩٩، أوفد مولاى سليمان شقيق السلطانة السابقة، فنشنتى فراتشكينى فى بعثة إلى بونابرت. وفى أثناء وجود البعثة فى باريس تفشى وباء الطاعون مرة أخرى فى المغرب، فأصيبت مرتا بالمرض القاتل كما أصيب به أبوها من قبل، وماتت فى ١٥ يونيو سنة ١٧٩٩.

ماتت مرتا فراتشكينى سلطانة المغرب فى الأربعين من العمر، بعد أن جلست على العرش وقاسمت زوجها مولاى محمد، حلو الحياة ومرها نحو عشرين سنة. ولم يسعدها الحظ بأن ترى وطنها كورسيكا منذ أن خطفت منه طفلة صغيرة ولم تترك ابناء ولكنها تركت ذكرى طيبة عطرة، وخدمت الوطن الذى تبناها بأمانة واخلاص ووفاء.

الفهرس

تابع الفهرس